

# الأخلاق

## فى القرآن والسنة

### (الجزء الأول)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ و رئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر و عضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا - سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب .- ط ١ .- دسوق : دار العلم

والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥ سم .

تدمك : 7-344 - 308 - 977 - 978

١ . الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm\_aleman@yahoo.com

elelm\_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والنزوح محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأى شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

# إهداء

إلى روح زوجي فى عالم الخلد

ثم إلى والدي ، ووالديها

كفاء ما قدما ، وجزاء ما أحسنا .



## الفهرس

الصفحة	المحتويات	مسلسل
٣	إهداء.....	١
٥	مقدمة.....	٢
١١	الصفح والعفو.....	٣
١٧	الإستئذان.....	٤
٢٢	السمع والطاعة.....	٥
٣٠	الأدب فى الخطابة.....	٦
٣٤	التواضع.....	٧
٥١	الوفاء فى المكاييل.....	٨
٥٣	بر الوالدين.....	٩
٦٨	الطاعة.....	١٠
٧٠	مراعاة المشاعر.....	١١
٧٨	التوقير والإحترام.....	١٢
٨١	التثبت من الخير.....	١٣
٩١	إجتناى كباىر الإثم.....	١٤
٩٥	المسارعة إلى العمل الصالح.....	١٥
٩٩	البعد عن أسباب التباغض.....	١٦
١٠٢	أسباب المحبة والمودة.....	١٧



## تابع الفهرس

الصفحة	المحتويات	مسلسل
١٠٧	الإستعداد للدار الآخرة.....	١٨
١١٣	الوفاء بالوعد.....	١٩
١١٧	التجارة مع الله .....	٢٠
١٢١	الإنفاق فى سبيل الله.....	٢١
١٣١	آداب إسلامية.....	٢٢
١٤١	حُسْنُ الخلق من الايمان.....	٢٣
١٥٠	الإستقامة.....	٢٤
١٥٧	الصبر.....	٢٥
١٦٠	توجيهات إلهية.....	٢٦
١٦٨	العدل والإنصاف .....	٢٧
١٧٥	مصادر الكتاب .....	٢٨

## مقدمة

لقد حدد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغاية من بعثته والمنهج الذى تتغياها رسالته ، وهو الدعوة الى الأخلاق وذلك بقوله - صلى الله عليه وسلم :- إنما بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .

فهذا الحديث على وَجْازَتِهِ يحمل كبير المعاني و غزير الفوائد حيث إن الإسلام وما يحويه ، ويأمر به من عبادات مرجعه الأخلاق ، فأية عِبَادَة كانت فرضاً أو سنة غير مقبولة من المسلم ما لم تكن العبادة مصحوبة بخلق كريم .

وقد اشتمل القرآن الكريم آيات كثيرة تأمر بالخلق الفاضل فى سور شتى وآيات كثيرة من كتاب الله العزيز ....

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿ [سورة النور ١٩ : ٢٠]

والمعنى إن الذين يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط فى القبح مثل إشاعة الرذيلة ، وغيرها من المنكرات فى المؤمنین الأطهار ، والمسلمين الأخيار نوعدهم الله بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وأما فى الدنيا فيكون بإقامة حد القذف عليهم ، وأما فى الآخرة فلهم عذاب جهنم وساءت مصيرا .

يقول "الحسن" : عَنِ بَهْدَا الْوَعِيدِ وَاللَّعِينِ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّهُمْ أَحْبَبُوا إِذَاءَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَذَلِكَ كُفْرٌ ، وَمَلْعُونَ صَاحِبَهُ (١) .

والله سبحانه وتعالى ، يعلم خفايا الأمور ، ولكن الناس لا يعلمون .

يقول الإمام الفخر الرازي وهذه الجملة فيها حُسْنُ الْمَوْقِعِ بهذا الموضع لأن محبة القلب كامنة ، ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله - عزوجل - فلا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ

1- البحر المحيط ط ٦ ، ص ٤٣٩ بتصرف .

فى الأرض ولا فى السماوات ، فصار هذا الذكر نهاية فى الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بآلغ فى إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزء عليه . (١)

يقول الله - عز وجل :

﴿يَعْلَمُ خَائِبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ﴾ [سورة غافر: ١٩]

ويقول سبحانه : ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [سورة الرعد: ١٠]

ويقول عز وجل :

﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَيَنْهَرُ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَ السَّيِّئِينَ وَتُخْفَى﴾ [سورة طه: ٧]

إن الله - سبحانه وتعالى - لما بين ما على أهل الافك ، وما على الذين سمعوا منهم ، وما ينبغى أن يتمسكوا به من آداب وأخلاق إسلامية كريمة ، اتبعه بقوله ويقول عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [سورة النور: ١٩]

وذلك فقد شارك فى هذا الذنب ، كما شارك فيه من فعله ، والذين لم ينكروه ، كأنهم فعلوه ، وليعلم أهل الافك ، كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه ، يستحقون العقاب بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين ، ويفيد قول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ...﴾

العموم ، وأن ذلك يشمل كل من كان بهذه الصفة ، وبما لا ريب فيه إن هذه الآية نزلت فى قذف السيدة عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنها - إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فوجب إجراؤها على ظاهرها فى العموم وبما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذف السيدة الفضلى " عائشة - رضى الله عنها - قوله تعالى " فى الذين

1- التفسير الكبير ، الفخر الرازى ص ٢٣ ص ١٨٣ .

آمنوا" فهذا يفيد أن الآية عامة تخص المؤمنين جميعاً صوتاً لأعراضهم ، وحفاظاً على أخلاقهم ونشر السيرة العطرة ، لا لنشر الشائعات والافتراءات للنيل من أعراض المسلمين والمسلمات .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :-

" أنى لأعرف قوماً يضربون صدورهم ضرباً يسمعه أهل النار ، وهم الهمازين اللمازين الذين يلتمسون عورات المسلمين ، ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم " .

وعنه أيضاً - عليه السلام :-

" لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ، ومن أقال مسلماً عَثْرَتَهُ أقال الله عَثْرَتَهُ يوم القيامة ، ومن سَتَرَ عورة ستر الله عورته يوم القيامة " .

و عنه أيضاً - عليه السلام :-

" المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه " .

و عن عبد الله بن عمر . عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

" من سره أن يُرْحَزَحَ عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ويحب أن يُؤتى إلى الناس ما يُؤتى إليه " .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال - عليه الصلاة والسلام :-

" لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه من الخير " .

الأستاذ الدكتور / على الخطيب

أستاذ ورئيس قسم الأوب والنقر

وعضو اتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأوب

الإسلامية العالمية

والعمير الأسبق الكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر الشريف - فرع جرجا سوهاج



## " الصفح والعفو "

ومن الآيات التى تأمر بحسن الخُلق ، ومقابله السيئة بالحسنة ، والشرب بالخير قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٢٢] .

والمعنى " لا يحلف أهل الفضل فى الدين ، وأصحاب الغنى واليسار وأهل الخلق الكريم ، أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان وذلك لمنكر ارتكبوه ، وذنب فعلوه ، وسيئة اقتترفوها ، وليغفروا وليصفحوا عما حدث منهم وما ارتكبوه ، من خطأ فى حقهم ، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنفاق والإحسان ألا تحبون أيها المؤمنون الطاهرين أن يغفر الله لكم على عفوكم ، وصفحكم ، وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ .

رئى أن " أبا بكر - رضي الله عنه - لما سمع هذه الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي " وأعاد النفقة مرة ثانية الى " مسطح " وكفر عن يمينه وقال : " والله لا انزعها منه أبدا ! .

وتدل الآية على فضل سيدنا أبى بكر - رضي عنه - وعلى خلقه الكريم ولا غرر فقد تَرَبَّى هو والصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - على مائدة الأخلاق مائدة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى امتدحه ربه - عز وجل - بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم: ٤]

فانظر أيها المسلم إلى رجل يعيد الإنفاق على رجل خاض فى عرضه ولاكُهُ  
 بلسانه وطلعنه فى شرفه وأساء إلى سمعته ، وهو الذى ينفق عليه ويأكل من بين  
 يديه هو وأهله وقرباته ، ومع ذلك يكفر عن يمينه بعد أن اقسام ألا ينفق عليه امتثالاً  
 لأمر الله – عز وجل – ولقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

" من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليحنت فى يمينه ثم ليكفر " .

تلك هى الأخلاق فى الإسلام والله غفور رحيم ، مع كمال قدرته على  
 العقاب .

وقد نزلت هذه الآية فى سيدنا " أبى بكر الصديق " بعد نزول القرآن الكريم  
 براءة الصديقة بنت الصديق " أبى بكر " – رضى الله عنهما .

وكان قد آل على نفسه أنه لا ينفق مُسطحاً بنافعة أبداً ، فالآية تذكير  
 لأبى بكر" وللمؤمنين بأنهم يخطئون ثم يحبون أن يغفر الله لهم .

ولا يحلف أن يمنع البر عن مستحقه حتى لو أساءوا ، ويقول الإمام الشهيد  
 "السيد قطب" وهنأَطَعُ على أُنُقِ عالٍ من آفاق يشرق فى نفس " أبى بكر  
 الصديق " – رضى الله عنه – الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى  
 احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه (١) .

فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال

الموحى :

﴿... أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ [سورة النور: ٢٢] .

1- فى ظلال القرآن ، للإمام الشهيد سيد قطب ج ٤ ، ص ٥ – ٢٥ .

حتى يرتفع على الآلام وعلى مشاعر الإنسان وعلى منطق البيئـة ، وحتى تشف روحه وترقّ وتشرق بنور الله ، فإذا هو يلـبى داعياً الله فى طمأنينة وصدق ويقول :

"بلى والله أنى لأحب أن يغفر الله لى " ويعيد إلى " مسطح " النفقة فيحلف والله لا أنزعها منه أبداً وكان ذلك فى مقابل قَسَمَهُ الذى أقسمه " والله لا انفعه بنافعة أبداً " .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ويغسله من أحوال المعركة وذلك ليبقى أبداً نظيفاً نكياً ، مشرقاً بالنور ويقول الإمام الفخر: " أعلم أنه تعالى كما أدب أهل الإفك ومن سَمِحَ كلامهم ، فكذلك أدب " أبا بكر " لما حلف انه لا ينفق على مُسَطَّح أبداً " .

والآية تدل على أن " أبا بكر " من أفضل الناس بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث قال : " أولوا الفضل " وهو المقصود بهذه الآية ولقد كان خوض الخائضين فى عرض " أبى بكر " – رضى الله عنه – أشد من وقع السهام حيث أنهم قرابته و ظلم القريب أشد وأقسى وأألم ، ويقول الشاعر :

و ظلم ذوى القربى أشدّ مضاضة  
على النفس من وقع الحسام المهند  
والله سبحانه و تعالى قال لسيدنا محمد – صلى الله عيه وسلم – :

" فاعف عنهم واصفح ، وقال فى حق سيدنا " أبى بكر " – رضى الله عنه – كان ثانى اثنين لرسول الله – صلى الله عيه وسلم – فى جميع الأخلاق حتى فى العفو والصفح. ويقول الله فى حق رسوله – صلى الله عيه وسلم – ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وقول الله تعالى ﴿...أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...﴾

[سورة النور: ٢٢] .



**فلما قدمت على معاوية قال لها :** مرحباً وأهلاً خير مقدم قدمه وافد كيف حالك يا خالة وكيف رأيت مسيرك **قالت:** خير مسير كأني كنت ربيبة بيت أو طفلاً مههداً ، **قال** بذلك أمرتهم فهل تعلمين لم بعثت إليك ، **قالت :** سبحان الله إن لي بعلم ما لم أعلم وهل يعلم ما في القلوب إلا الله .

**قال :** بُعثت إليك أن أسألك ألسنت راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصّفين توقدين الحربَ وتَحْضِنين على القتال فما حَمَلَكِ على ذلك .

**قالت :** يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر .

**قال لها :** صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين قالت ما أحفظه .

**قال:** ولكي والله أحفظه لله أبوك لقد سمعتك **تقولين :** أيها الناس إنكم في فتنةٍ غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة فيالها من فتنة عمياء صماء يسمع لقائلها ولا ينظر لسائقها .

أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكوكب لا يُقَدُّ في القمر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزمرد لا يوازن الحجر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، إلا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصيراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكان قد اندمل شعب الشتات، وَالتَّامَّتْ كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنسى ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، إلا إن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خيراً في الأمور عواقباً ، أيها إلى الحرب قدماً غير ناكسين فهنا يومٌ له ما بعده .

ثم قال معاوية : والله يا زرقاء لقد شاركت علياً - عليه السلام - فى كل دم سفكه .

فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتكم مثلكم من بشر بخير وسرّ جليسه . قال لها : وقد سرك ذلك .

قالت : نعم والله لقد سرني قولك فإني بتصديق الفعل .

فقال معاوية : والله لوفاءكم له بعد موته أحب إليّ من حبكم له فى حياته أذكري حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً ، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طلب .

قال : صدقت فاقطعها ضيعة أعلّتها فى أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها وردّها والذين معها مكرمين. (١)

ومذهب جمهور الفقهاء : أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها انه ينبغي له أن يأتي الذى هو خير ، ثم يكفر عن يمينه .

وقال بعضهم إنه يأتي بالذي هو خير وذلك كفارته ، أما الآيات فهى أن الله تعالى أمر " أبا بكر " بالحنث ، ولم يوجب عليه كفارة ، وأما الخبر فهو ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير " (٢) وذلك كفارته .

1 - بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ص ٩٠ ، و ما بعدها ، دار الفضيلة .  
2 - مفاتيح الغيب ج ١١ ، ص ٥٠٩ : ص ٥١٨ .

## " الإِسْتِئْذَان "

ومن الآيات القرآنية الكريمة الدالة على الأخلاق ، قول الله تعالى :-

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا  
وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النور: ٢٧]

وهذه الآية تدل دالةً حاسمةً على عناية القرآن الكريم لأموال الدنيا والدين وخاصة الأخلاق التى تنظم حياة المسلم كلها وتضيء أمامه الطريق المظلم حتى يحظى بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك إن الله تعالى لما حذر من قذف المحصنات والمسلمات الغافلات وشدّد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهم فى أوقات الخلوات وقد أرشد الله تعالى إلى الآداب الشرعية فى دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول ، والتسليم بعده فقال : لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذنوا وتسلموا على أهل المنزل فإن ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول فجأة لتتعظوا وتعملوا بموجب هذه الآداب الراشدة<sup>(١)</sup> .

يقول الإمام "القرطبي" والمعنى :

" إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بَعْتَةً ، أو من غير تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً قال: "حييتم صباحا" وحييتم مساءً" و دخله فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف "

1- صفوة التفسير ج ٢ ، ص ٣٣٤ .

وروى أن رجلا قال للنبي - صلى الله عليه وسلم :-

" أأستئذن على أمي قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيري ، أأستئذن عليها كلما دخلت؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتحب أن تراها عارية؟ قال : لا ، قال - صلى الله عليه وسلم - : فأستئذن عليها " (١) .

لأن الدخول فجأة وجه من وجوه التهمة ، أختى المسلم ، أختى المسلمة إن الإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء مجتمعه النظيف ، بل يعتمد على الوقاية وهى خير من العلاج ، والإسلام لا يحارب الفطرة ولا دوافعها ولكنه ينظم هذه الفطرة ، وينظم دوافعها فى إطار يحفظ للمسلم كيانه وخلقه ، وسيرته والمقصود بمنهج التربية فيه الإسلام :

تضييق فرص الغواية وإقصاء عوامل الفتنة ومن هنا يجعل الإسلام للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجئ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم والسماح لهم بالدخول خشية أن تقع أعينهم على ما حرم الله ، فالبيت عورة يجب على المسلم صونها ، وصيانتها ، والبيوت سكن وستر للمسلم ، ولا يمكن أن يكون البيت سترً للمسلم إلا إذا كان آمناً ومصوناً فتسكن إليه أرواحهم ، وتطمئن نفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم و حرمتهم ، ويتجنبون أعباء الحذر والحرص المرهقة للنفس والأعصاب ولا تكون البيوت كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً ، لا يجوز لأحد استباحته إلا بعلم أهله، وإذنههم و فى الوقت الذى يريدونه ، والساعة التى يحددون ، وعلى الحالة التى يحبون .

فإن استباحة البيوت من الداخلين بدون استئذان يجعل أعينهم تقع على العورات وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات ، وتهيبُ الفرصة للغوايات التي تنشأ من اللقاءات العابرة فتتحول إلى نظرات قاصدة ، ثم تتحول بعد ذلك إلى علاقات آثمة أو إلى شهوات محرمة تنشأ عنها العُقْدُ النفسية والانحرافات .

من أجل ذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي ألا وهو أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول عليهم ويعبر القرآن الكريم عن الاستئذان بالاستئناس ، وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان كما يوحى بلطف الطريقة التي يجيء بها الطارق فتحدث في نفوس أهل البيت أنساً به واستعداداً لاستقباله وهي لغة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظرف الناس في بيوتهم ، وما يلبسها من ضرورات لا يجوز أن يشقَى بها أهلها ، ويخرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار .

وبعد الاستئذان إما أن يكون في البيت أحداً أو لا يكون فإن لم يكن فيه أحد فلا يجوز اقتحامه بعد الاستئذان لأنه لا دخول إلا بأذن قال تعالى :

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ

أَرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٢٨]

وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب الإذن ، فإن لم يَأْذَن أهل البيت فلا دخول ويجب الانصراف دون تأخر أو انتظار قال تعالى : ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ .

ارجعوا دون غضاضة في أنفسكم فلنأسرهم وأعدارهم ، ويجب أن يُتْرَكَ لهم وحدهم تقدير ظرفهم فالله هو المطلع على خفايا القلوب ، وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات فأما البيوت العامّة مثل الفنادق ، والبيوت المعدة للضيافة

منفصلة عن السكن فلا حرج فى الدخول إليها بغير استئذان دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية ، **قال تعالى** : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [سورة النور : ٢٩]

هذا هو الخلق الإسلامى الذى يصون البيوت من أعين ذئاب البشر حيث إن النظر يريد الزنا ، **ويقول شوقي أمير الشعراء** :

نظرةً فابتسامةً فموعداً فلقاءً .

ويحفظ الله أعراض المسلمين ، وعوراتهم حتى لا تكون عرضة للنظر من أولى الإربة وحتى يكون البيت المسلم بيتاً نظيفاً ، مصوناً ، عفيفاً ، يعيش فى ظلال الإسلام ، وما يأمر به من خلق يحفظ على المسلم دينه وعرضه .

**يقول الشاعر :**

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً      لقلبك يوماً أتعبتك المناظر  
رأيت الذى لأكله أنت قادراً عليه      وعلى عن بعضه أنت صابر

ويرى أن قسيسا أراد أن ينال من المسلمين بالطنع فى أم المؤمنين السيدة "عائشة" - رضي الله عنها - فقال: إن الناس رموها بإلافك ولا ندرى أهى بريئة أم متهمة؟ .

فأجابه بعض الحاضرين بقوله : اسمع يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتتا بالزنا وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زج وقد جاءت بولد ، والأخرى لها زج ولم يأتها ولد - يقصد " مريم " و " عائشة " فأيهما أحرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

فعن " أبى موسى الاشعري " - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " الاستئذان ثلاث ، فإن أذن لك وإلا فارجع " (١) .

وعن ربيعي بن حراش قال : حدثنا رجل من بنى عامر ، انه استأذن على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو فى بيته ، فقال : " أألجُ ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لخادمه : " اخرج إلى هذا وعلمه الاستئذان ، فقال له : السلام عليكم أَدْخَل ؟ فسمعه الرجل فقال : " السلام عليكم أَدْخَل ؟ فأذن له النبي - صلى الله عليه وسلم - فدخَل " (٢) .

---

1 - متفق عليه .  
2- رواه ابو داود باسناد صحيح .

## " السمع والطاعة "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تأمر المسلم بحسن الخلق والسمع

والطاعة وأولها السمع والطاعة لله ورسوله ، قال تعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا<sup>ط</sup> فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا  
أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [سورة المائدة: ٩٢].  
وقال تعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٢].  
وقال تعالى :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ<sup>ط</sup>  
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ٤٦] .  
وقال تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنهُ وَأَنْتُمْ  
تَسْمَعُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٠] .  
وقال تعالى :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ<sup>ط</sup>  
مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٩] .  
وقال تعالى :

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا<sup>ط</sup>  
أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٣].

### والآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٥١].

يعنى سمعاً وطاعة وإهدا وصفهم الله تعالى بالفلاح ، وهو نيل المطلوب

والسلامة من المهوب فقال - عز وجل :- " وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "

وقال " قتادة " - رضي الله عنه - أن يقولوا : سمعنا وأطعنا ، وذكرنا أن

" عيادة بن الصامت " وكان - رضي الله عنه - عقيباً بديراً ، يعنى شهد بيعة

العقبة وَأَحَدُ رِجَالِ غَزَاةِ بَدْرِ الْكُبْرَى ، واحد نقيب الأنصار إنه حضره الموت ، قال

لابن أخيه " جنادة بن أبى أمية " ألا أنبئك بماذا عليك ، وبماذا لك ، قال : بلى ،

قال : " فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك وأثرة

عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل وأن لا تنزع الأمر أهله إلا أن يأمرك

بمعصيته الله بواحا ، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله

قال - رضي الله عنه - قال لا إسلام إلا بطاعة الله .

ولا خير إلا فى جماعة . والنصيحة لله ورسوله والخليفة للمؤمنين عامة ،

قال وقد ذكرنا أن " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - كان يقول : " عروة

الإسلام شهادة أن لا اله إلا الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاة الله

أمر المسلمين ، ومعنى يطع الله ورسوله أى فيما أمره به وترك ما نهياه عنه ،

ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقيه فيما يستقبل <sup>(١)</sup> ، وقوله فأولئك هم

المفلحون يعنى الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شرفى الدنيا والآخرة .

1 - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، المجد الثالث ص ٢٩٨ و ما بعدها .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

" الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ، قال : لله ، وكتابه ، ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

ويقول بعض المفسرين فى معنى هذه الآية أى كان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا " سمعاً وطاعة .

فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك ، ويقول الإمام " الطبري " ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين ، وتأديب منه للآخرين ، وأولئك المسارعون الى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين (١) .

وان حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الجور والحيث والظلم لأن الله تعالى يقول : ﴿...وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف : ٤٩] .

فكل الخلق أمامه سواء ، وكل حُكْم عدا حكم الله مظنة الجور والظلم فالبشر لا يملكون أنفسهم حين يشرعون ، وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ فى التشريع حماية نفسه و حماية مصالحه ، وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة و دولة لدولة و كتلة لكتلة أما حين يشرع الله - عزوجل - فلا حماية ولا مصلحة ، إنما هى العدالة المطلقة من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله و حكم رسوله هم الظالمون ، أما المؤمنون حقاً فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ، وله قول آخر إذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : " سمعنا وأطعنا " والقول الذى يليق بالمؤمنين ، وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور :

1 - الطبري ج ١٨ ، ص ١٢٠ ، التفسير الكبير ج ٢٤ ، ص ٢١ .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور: ٥١].

فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، سمع وطاعة مستمدان من الثقة المطلقة فى أن حكم الله ورسوله هو الحكم الحق والعدل وما عداه الجور ، والظلم والحييف ، والهوى ، والأهواء الشخصية ، وأولئك هم المفلحون أى لأن الله هو الذى يدبر أمورهم وينظم علاقتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلا بد أن يكونوا خيراً من الذين يدبر أمرهم بشر مثلهم فهذا خالق وذلك مخلوق ، وهذه الآية الكريمة تتحدث عن الطاعة والتسليم فى الأحكام (١) .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعو إلى التسلح بالأخلاق الكريمة ومراعاة مشاعر المسلمين والمسلمات ، والحفاظ على المحرمات وصون البيوت والعورات يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْذِبَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ وَمِنَ الْبَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة النور: ٥٨].

هذه الآية الكريمة اشتملت على آداب الاستئذان فى داخل البيوت فالخادم من الرقيق والأطفال المميزين الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا استئذان إلا فى ثلاثة أوقات تنكشف فيها عادة العورات فيهم يستأذنون فيها وهذه الأوقات

1 - فى ظلال القرآن الكريم ج ٤ ، ص ، والتفسير الكبير ج ١١ ، ص ٦٢١ ، وما بعدها و صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٣٣٤٥ و ما بعدها .

هى : قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم للراحة ، ووقت الظهر عند القيلولة ، و بعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ملابس النوم .

و سَمَّاهُمْ عورات لانكشاف العورات فيها .

وفى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم وأن يستأذن الصغار المميزين الذين لم يبلغوا الحلم حتى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم . وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية مستهينين بآثارهم النفسية والعصبية والخُلُقِيَّةِ طانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة وإن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر علماء النفس أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والله - عز وجل - يؤدب المؤمنين بهذه الآداب وهو يريد أن يبنى أمةً سليمة الأعصاب ، وسليمة الصدور ، ومهذبة المشاعر ، وطاهرة القلوب ، ونظيفة التصورات .

ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها لأنها مَطْنَةٌ انكشاف العورات ولا يجعل استئذان الخدم والصغار فى كل حين منعاً للحرص ، فهم كثيرى الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة لقوله تعالى :

﴿...طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة النور: ٥٨].

وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وازالة الحرج والمشقة لوحتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار ، فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ،

فإنهم يدخلون فى حكم الأجنب الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت حسب النص العام الذى مضت به آية الاستئذان ،

ويعقب على الآية بقوله : ﴿...وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾ [سورة النور: ٥٨].  
وذلك لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر، وما يُصَلِّحُهَا من الأدب ومقام حكمته كذلك فى علاج النفوس والقلوب .

ويقول " ابن كثير " روى الإمام مالك وحمد بن حنبل وأهل السنة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال فى الهرة أنها ليست نجسة ، وأنها من الطوافين عليكم والطوافات ويغترف فى الطوافين ما لم يغترف فى غيرهم ، ولهذا ساق الرأي آنف الذكر ويقول ابن عباس - رضى الله عنه - ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ، الأولى :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْرِبَ لَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ [سورة النور: ٥٨].  
وقوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ ...﴾ [سورة النساء: ٨].  
والثالثة قول الله تعالى فى الحجرات :

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ...﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

وقال " مقاتل بن حيان " بلغنا أن رجلاً من الأنصار وامرأته " أسماء بنت مرثد " صنعا للنبي - صلى الله عليه وسلم - طعاماً فدعا الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت " أسماء " : " يا رسول الله ما أقبح هذا انه ليدخل على المرأة وزوجها فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْرِبَ لَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾ [سورة النور: ٥٨].

فهذه الآية تدعو إلى الأخلاق الكريمة ، وتضع المناهج اللائقة بالمسلم كي يتخذه نبياً سائياً يضيء له الطريق حتى يفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة .

كما أباح الدخول فى غير هذه الأوقات بعد الاستئذان لأنهم خدم يطوفون على أسيادهم للخدمة ، ويدخلون المنازل غدوةً وعشيةً بغير إذن إلا فى تلك الأوقات التى بينها آنفاً وهى من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، وهذا بيان للأحكام الشرعية ليتأدب بها المسلم والله عالم بأمور خلقه حكيم فى تدبيره لهم ، أما إذا بلغ الأطفال الحلم وأصبحوا فى سن التكليف فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم .

وهذا تفصيل لأمر الشريعة والدين .

ويروى أن " ابن عباس - " رضى الله عنه - قال : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث غلاماً من الأنصار إلى " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - ليدعوه فوجده نائماً فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ ، فعاد الغلام ، ودفع الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام : اللهم أيقظه لي .

ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكتف من " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه - شيء وعرف " عمر " إن الغلام رأى ذلك منه ، فقال : " وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا ، وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوجده قد نزل عليه :

﴿ ..... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَسْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [سورة النور : ٥٨] .

فَحَمَدَ اللَّهُ تَعَالَى " عمر بن الخطاب " عند ذلك .

وما ذاك يا "عمر" فأخبره بما فعل الغلام ، فتعجب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتَعَرَّفَ اسمه ومدحه وقال : " إن الله يحب الحلیم الحیی العفیف المتعفف ویبغض البذیء الجریء السافل ، الملحف " وهذا ما یسمى بموافقات "عمر" – رضی الله عنه – .

وقیل نزلت فی " أسماء بنت أبی مرثد " حیث قالت إنا لندخل علی الرجل والمرأة ولعلهما یكونان فی لحاف واحد ، وقیل دخل علیها غلام لها کبیر فی وقت کرهت دخوله فأتت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فقالت : إن خدمنا وغلما ننا یدخلون علینا فی حال نکرهها ، فنزلت هذه الآية .

## " الأدب فى الخطابة "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعو الى الأخلاق وتوجه المسلم إلى السلوك الحضارى ، حيث أن الحضارة الحقيقية هى حضارة الإسلام الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

ومن المعروف ، الخلق الحسن ، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –  
حَسِنُ الْخُلُقِ فِي الْجَنَّةِ وَسَوْءُ الْخُلُقِ فِي النَّارِ .

هذه الآية هى قوله – عز وجل – :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة النور : ٦٣].

والمعنى : لا تدعوا ولا تنادوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باسمه كما ينادى بعضكم بعضا باسمه بل قولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله ، تعظيماً وتفخيماً لمقامه ، وإعظاماً لشأنه ، واعترافاً بمكانته السامية ، ودرجته الشامخة الرفيعة يقول أبو حيان : " لما كان التداعي بالأسماء على عادة البداوة به مثل : يا رسول الله يا نبي الله ألا ترى الى بعض جفاوة من أسلم ، فكانوا ينادونه باسمه فيقولون له " يا محمد " فنهوا عن ذلك " قال قتادة – رضي الله عنه – : أمرهم الله تعالى أن يفخموه ويشرفوه .

وهذا توجيه راشد الى السلوك السوي المستقيم ، والخلق الحسن القويم فلا بد من أن تمتلئ القلوب بتوفير وتعظيم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى تستشعر توفير وتعظيم كل كلمة تصدر منه ، وكل توجيه يومئ إليه ، ويأمر به ، و

يرغب فيه ، وهى لفظة ضرورية فلا بد للمربى من وقار ، وللقائد من هيبة و بريق ساطع ، وفارق كبير بين أن يكون هو متواضعاً ليناً هيناً ، وأن ينسوا هم أنه هو مُربّيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض فالواجب أن تبقى للمربى منزلةً فى نفوس من يربّيهم يرتفع بها عليهم فى قراره شعورهم، ويستحيون هم ان يتجاوزوا معها حدود التعظيم والتوقير والاحترام (١) .

وكذلك فى المعنى قوله تعالى : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٢٠] .  
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحجرات : ١] .

ويقول ابن كثير الدمشقي : إن المعنى لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره من الناس ، فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا ، وهذا خلق راق ، وسلوك حضاري من طرز رفيع فيوجهنا القرآن الكريم الى وضع كل شخص فى المنزلة التى يستأهلها ويستحقها ، ووصفه فى المكانة اللائقة به ، يقول تعالى :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [سورة الصافات : ١٦٤] (٢) .

1- صفوة التفسير للصابونى ج٢ ، ص ٣٥١ بتصريف - فى ظلال القرآن بتصريف ج ٤ ، ص ٥٣٥ وايضا التفسير الكبير ج١١ ، ص ٦٤٣ ، وما بعدها .  
2 - التفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ، ص ٣٠٧ .

أى منزلةً معروفة ، وانظر الى الأدب الراقى الذى تجلى صورة فى المعراج حيث فارق سيدنا جبريل - عليه السلام - سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسولنا الكريم - عليه السلام - : أو فى مثل هذا المكان يترك الخليل خليله؟ فقال له سيدنا جبريل - عليه السلام - : لو تقدمت أنا لاحتقرت لو تقدمت أنت لكرمت .

فهذا هو مقامك يا رسول الله ، فى قريك من الله ، فسيدنا موسى نادى ربه من فوق جبل الطور ورسولنا ناجاه من فوق بساط النور ، وفرق بعيد بين المناذة والمناجاة فالمناذاة تكون عن بُعد ، والمناجاة تكون عن قُرب ، وجبل الطور غير بساط النور الذى يكون فى الحضرة الإلهية .

ومن بين الأخلاق الكريمة فى القرآن الكريم أن تتأدى على الشخص بمكانته التى تليق به فلا يصح أن تنادى " الطبيب " بقولك له : " يا مهندس " ولا تنادى المهندس بالطبيب ، بل تنادى على كل شخص برتبته التى يستحقها ، وأزله المكانة التى يستأهلها وذلك خلق ما أمرنا به الله تعالى فى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وتلك توجيهات ربانية راشدة ، وأخلاق قرآنية حميدة و صدقت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر " - رضى الله عنها - حين سئلت عن أخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : " كان قرانا يمشى على الأرض " .

ويقول صاحب " الكشف " فى معنى هذه الآية : " لا تقيسوا دعاءكم إياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير إذن داعي ، أولا تجعلوا تسميته و نداءه كما يُسمى بعضكم بعضا، ويناديه باسمه الذى سماه به

أبواه، ولا تقولوا: "يا محمد" ولكن قولوا: "يا نبي الله" و"يا رسول الله" مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع<sup>(١)</sup> وتحتمل "لا تجعلوا دعاء الرسول ربه، مثل ما يدعو صغيركم كبيركم أو فقيركم غنيكم يسأله حاجةً، وربما أجابه، وربما ردة، ولكن دعوات رسول الله - صلى الله عليه وسلم- مسموعة مستجابة.

هذه توجيهات قرآنية كريمة تدعو إلى الخلق الحسن والاحترام المتبادل بين الناس والذي يغرس فى نفوسهم المودة والاحترام والتوقير فبذلك يرقى المجتمع الإسلامى ويتقدم فى كل المجالات، ويعيش المسلمون فى سعادة وهناء.

---

1- الكشاف للزمخشري، ج ٣، ص ٨٦.

## " التواضع "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن الأخلاق وتضرب المثل والقدوة الحسنة ميعاد الرحمن ، فيقول الله – عزوجل – :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٣].

فانظر إلى المعاني السامية التى تفردت بها هذه الآية حيث أضاف العباد إلى جلالته – سبحانه وتعالى – فقال : وعباد الرحمن .

فالإضافة هنا إضافة تشريف وتعظيم وتوقير ، و يعنى هؤلاء هم العباد الذين يحبهم الله ، وهم جديرون بالانتساب إليه وهم الذين يمشون على الأرض فى لين ، وسكينة ووقار لا يضربون الأرض بأقدامهم بطراً ، و صلفاً ، وتكبراً و لا يتبخترون فى مشيتهم ، وإذا خاطبهم السفهاء بجفاء وغلظة وقساوة طبع وأنفة وكبرياء ، و شمم وآباء قالوا قولاً حسناً طيباً ينجون بأنفسهم من اقتراف الآثام ، وارتكاب المناكر ، واجترح السيئات ، وهم قدوة حسنة للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاريها فى التواضع ، والخلق الكريم ، والنجاة من الإثم ، والنأي عن الذنوب .

وبهذا السلوك يرقى المجتمع المسلم ، ويتحضر ، ويتقدم ، وينمو ويزدهر ويكون نموذجاً من طُرُزٍ فريد لبقية المجتمعات المسلمة وغير المسلمة فى الخلق والسلوك الحضاري فإن الأمة هى الأخلاق .

فإن كانت الأمة ذات خُلُقٍ كانت أمةً راقيةً ، مزدهرةً فى جميع المجالات .

وأما إذا انحطت أخلاق الأمة انحطت في كل شيء وذهبت نضارتها وانطمست حضارتها ، واندثرت معالمها ، وضاع بهاؤها وجمالها ، يقول الشاعر شوقي :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا  
وعباد الرحمن يعنى ليسوا عباداً ، أو عبيداً لبيت فلان أو بيت علان إنما هم  
عُباد وعبيدٌ لله – عز وجل – وهم بهذه الصفات يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون  
فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما .

إنهم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هيين ليين .

ومنه الحديث " أحب حبيبك هونا ما " ، وقوله أيضا : " المؤمنون هينون  
لينون " وفي الأمثال : " إذا عز أخوك فهن " ومعناه إذا عاسر فياسر ، والمعنى أنهم  
يمشون بسكينة ووقار ، وتواضع ، لا يضربون الأرض بإقدامهم أشراً وبطراً ، ولذلك  
كره بعض العلماء الركوب في الأسواق .

ولقوله إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، والمراد بالجهل هو السفه و سوء  
الخلق .

يقول الشاعر الجاهلي " عمرو بن كلثوم " :

ألا لا يجهل احد علينا      فنجهل فوق جهل الجاهلينا  
وَيُرَى أن سيدنا " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – انه رأى شاباً  
يمشى رويداً فقال له سيدنا " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – ما بالك أأنت  
مريض ؟

فقال : لا يا أمير المؤمنين .

فعلاه " عمر بن الخطاب " - رضى الله عنه- " بالدرّة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

" إذا أُتيتُم الصلاة فلا تَأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعلیکم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا " ويقول " عبد الله بن المبارك " : عن " معمر " عن عمر بن المختار، عن الحسن البصرى ، فى قوله " وعباد الرحمن " : " إن المؤمنین قوم ذلت منهم- والله- الأسماع ، والأبصار، والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى، وانهم - والله- لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا : " الحمد لله الذى أذهب عَنَّا الحزن ، أما والله ما أحزنهم .

ما أحزن الناس ، ولا تعاضم فى نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار، انه من لم يتعيز بعز الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير الله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب فقد قلَّ علمه ، وحضر عذابه ، إذا خاض فى حقهم خائض لم يقابلوه بالمثل ، بل يعفون ويصفحون ولا يقابلون إلا خيراً ، كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حُلماً ، ويقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ

الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة القصص : ٥٥].

وعن النعمان بن مقرن المزني : " قال : قال رسول الله – صلى الله عليه

وسلم :-

" وسبَّ رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام ، فقال رسول

الله – صلى الله عليه وسلم – : " أما إن ملكاً بينكما يسب عنك كلما شتمك هذا ، قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له " و عليك السلام .

قال : لا ، بل عليهم ، وأنت أحق به . ومعنى قالوا سلاما ، أى قالوا قولاً

سديداً صادقاً ، صحيحاً .

و يقول " سعيد بن جبير " : ردوا معرئفا من القول ، وقال الحسن

البصري : قالوا : " سلام عليكم " معناه أن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٤]. أى فى

طاعته وعبادته . (١)

ولكن الإسلام يأمر بالإغضاء عن السُّفَهَاء ، وترك المقابلة يعنى مقابلة

الإساءة بالإساءة مستحسن فى الخُلُق والأدب ، والمروءة ، والشريعة ، و'اسلم للعِرض ،

وأدعى للورع والزهد والتقوى . وهذه هى السِمة الأولى من سمات عباد الرحمن ، هى

أنهم كما أوامناً إلى ذلك أنفا ، يمشون على الأرض مشية سهلة لينة بمنأى عن

1 - تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

- التفسير الكبير ، للفخر الرازى ، ج ١٢ ، ص ٨٤ و ما بعدها
- فى ظلال القرآن الكريم ، للامام الشهيد " سيد قطب " ، ج ٥ ، ص ٢٥٧٦
- الكشاف ، للزمخشري ، ج ٣ ، ص ١٠٣
- صفوة التفاسير للصابونى ج ٢ ، ص ٣٦٣ و ما بعدها
- الطبرى ، ج ١٩ ، ص ٢٠
- التفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ١٠٨
- الظلال ، ج ٥ ص ٢٥٨٠ .

الصنعة والتكلف ، بعيدة عن الخيلاء وتصعير الخد ، فمشية الشخص تُعبّرُ عن شخصيته و عما يكمن فيها من مشاعر والنفس السوية تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها فيمشى مشية جادة فيها وقار وسكينة ، وليس معنى ذلك أنهم يمشون متموتين منكسي الرؤوس ، متهاولي البنيات كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار الصلاح والتقوى .

وهذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا مشى تكفاً تكفياً ، وكان أسرع الناس مشيةً وأحسنها ، وأسكنها .

ويقول الصحابي الجليل " أبو هريرة " – رضي الله عنه – : " ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأن الشمس تجرى في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأنما الأرض تطوى له . وأنا لنجهد أنفسنا وأنه لغير مكترث .

وقال " علي بن أبي طالب " – رضي الله عنه : " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا مشى تكفاً تكفياً ، كأنما ينحط من صيب " وقال مرةً إذا تقلع – قلت : والتقلع هو الارتفاع من الأرض بجملته كحال المنحط من الصيب ، وهي مشية أولى العزم والهمة والشجاعة ، وهم في جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يتلفتون إلى حماقة الحمقى ، وسفه السفهاء ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء ، وارذل الناس في جدلٍ وعراكٍ وترفعون عن المهاترة مع الطائشين وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، وليس ذلك عن ضعف . ولكن ذلك عن ترفع واستعلاء لا عن فخر وخيلاء ، وصيانةً للوقت فبدلاً من أن يُنفق المسلم وقته في المهاترات والترف والطيش ينفق وقته فيما هو أهم وأنفع ، وأكرم وأرفع ، وهذا ما يليق بالرجل الكريم ، صاحب

الخلق الاسلامى القويم ، هذا نهارهم ، أما ليلهم فكان سجوداً وقياماً وصالحاً وتقوى ، ومراقبةً لله – عز وجل – والشعور بجلالة الخوف من عذابه . هذا نهارهم مع الناس ، فأما ليلهم فهو مراقبتهم لله وتقواه ، والخوف من عذابه .

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [سورة المؤمنون ٦٤] وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ

عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿ [سورة المؤمنون ٦٤: ٦٥] .

والتعبير يبرز من الصلاة " السجود والقيام " وذلك لتصوير حركة عباد الرحمن فى جنح الليل والناس نيام فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سُجَّدًا وقياماً يتوجهون لربهم وحده ، ويقومون له وحده ، ويسجدون له وحده فهم مشغولون عن النوم المريح بما هو أريح منه وامتع ، وهو التوجه لربهم يخلد النائم الى الأرض وهم يتطلعون الى عرش الرحمن ، ينام الناس وهم قائمون ساجدون ، وهم فى سجودهم وقيامهم وتطلعهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى والخوف من عذاب جهنم يقولون : ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ ولم يريا جهنم ، ولم يشاهدوها ، ولكنهم آمنوا بوجودها ، وتخيّلوها وتمثلوا صورتها وذلك مما جاءهم فى القرآن الكريم ، وسنة النبي المطهرة – صلى الله عليه وسلم – فهذا الخوف كان ثمرة الإيمان والتصديق .

والتعبير يوحى كأنما جهنم متعرضة لكل أحد منهم فَاغِرَةً فإها تريد ابتلاعهم فتصورهم لها بهذا الوضع أوثثهم الخشية والخوف ، والضراعة والتقوى ونرى تعبيرهم يرتعش ، وهم يتضرعون الى ربهم خوفاً وفزعاً " إن عذابها كان غراماً " يعنى ملازماً لا يتحول عن صاحبه ، ولا يفارقه ، والغرام هو أشد أنواع العذاب ، فهو ما يجعله مرءعاً ومخيفاً .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [سورة المؤمنون ٦٦]

وهل أسوأ من جهنم مكانا يستقر فيه الإنسان ويقيم .

وأين الاستقرار وهى النار؟ وأين المقام وهو القلب على اللظى ليل نهار يقول

الله تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٧) ﴿ وَيَا لَأَسْعَارَهُمْ بَسْتَعْفِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات ١٧: ١٨]  
 وقوله - عز وجل: " نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا  
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [سورة السجدة: ١٦].  
 قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ  
 يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة الزمر: ٩].

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٥]

يعنى ملازما دائما : كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وأن يعطى جزىلا فلا يبالى  
 ولهذا يقول " الحسن " - رحمه الله :-

كل سيء يصيب ابن آدم ويزيل عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام هو الملام  
 ما دامت السموات والأرض ، وهى بئس المنزل منظرًا وبئس المقيلا مقاما .  
 وعن " ملك بن الحارث " إنه قال : إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها  
 فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : " ومكانك حتى تتحَفَّ ، قال : " فيسقى كأساً  
 من سم الأسود والعقارب فيتميز الجلد على حده والشعر على حدة ، والعصب على  
 حدة والعروق على حده .

و عن " مجاهد بن عبيد بن عمير " انه قال : " إن فى النار لخبايا فيها  
 حيات أمثال البخ وعقارب أمثال البغال الدهم ، فإذا قَدَفَتْ بهم فى النار خرجت  
 إليهم من أوطانها . فأخذت بشفاههم وأبصارهم ، وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى  
 أقدامهم ، فإذا وجدت حرَّ النار رجعت .

وعن " أنس بن مالك " - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " أن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة " يا حنان يا منان ، فيقول الله - عزوجل - لجبريل : " اذهب فأتني بعبدى هذا ، فينطلق " جبريل " فيجد أهل النار مكبين فيكون فيرجع إلى ربه - عزوجل - فيخبره ، فيقول الله - عزوجل - : " أتتني به فإنه فى مكان كذا وكذا فيجئ فيؤتفه على ربه - عزوجل - فيقول له : " يا عبدي كيف وجدت مكانك و مقيلك ؟ فيقول : يا رب : شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله - عزوجل - : " رتوا عبدي " ، فيقول : " يارب ما كنت أرجوا إذا أخرجتني منها أن تردني فيها " ، فيقول الله - عزوجل - " دعوا عبدي .

ومن صفاتهم وأخلاقهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [سورة الفرقان : ٦٧] .

هذا الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى " ليسوا مُبذرين فى إنفاقهم فى مطعمهم ومشربهم ، وملبسهم ، ولا مقصرين ومضيعين بحيث يصبحون بخلاء " ، " وكان بين ذلك قواما " أى وكان إنفاقهم وسطا ، معتدلاً بين الإسراف والتقتير مثل قول الله - عزوجل :-

﴿ وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

[سورة الأَسراء : ٢٩]

ويقول " مجاهد " - رضي الله عنه :-

" لو أنفقتَ مثل جبل قبيس ذهباً فى طاعة الله ما كان سرفاً ، ولو أنفقتَ صاعاً فى معصية الله كان سرفاً " .

وهم مع توافر هذه الصفات فيهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، بل أنهم يوحدونه مخلصين له الدين ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بما يحق أن

تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أو زنا مع إحصان ، أو القتل قصاصاً لا يرتكبون جريمة الزنا التى هى من أفحش الجرائم ، ومن يقتترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك ، والقتل ، والزنا يجد فى الآخرة النكال والعقوبة ويخلد فيه مُهاناً " يعنى يضاعف عقابه بسبب الشرك والمعاصي ، ويخلد فى ذلك العذاب ذليلاً حقيراً ، إلا من تاب فى الدنيا التوبة النصوح وأحسن عملاً ، فأولئك يكرمهم الله فى الآخرة فيجعل مكان سيئاتهم حسنات ، وفى الحديث " أنى لأعلم أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : " عرضوا عليه صغار ذنوبه ، فيقال له " عملت كذا وكذا وكذا فيقول : نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ، فيقول له : " فان لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : يارب قد عملت أشياء لا أراها هنا ، قال : فضحك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بدت نواجره " (١) .

﴿.....وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الفرقان : ٧٠]

أى واسع المغفرة ، كثير الرحمة ، من تاب عن المعاصي ، وأصلح سيرته فمن الله يقبل توبته ويكون عند الله مرضياً .

ومن سمات " عباد الرحمن " ومن أخلاقهم الإسلامية أنهم لا يشهدون الزور وعدم شهادة الزور قد تكون على ظاهر اللفظ ومعناه القريب ، إنهم لا يؤنون شهادة الزور لما فى ذلك من تضييع الحقوق والإعانة على الظلم .

وقد يكون معناها " الفرار من مجرد الوجود فى مجلس أو مجال يقع فيه الزور بكل صنوفه وألوانه ، ترفعاً منهم عن شهود مثل هذه المجالس وتلك المجالات .

وهو أبلغ وأوقع ، وهم كذلك يصونون أنفسهم ، واهتماماتهم عن اللغو والهذر وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل بالهوا الفارغ ، وهو من عقيدته ومن دعوته و من تكاليفها فى نفسه ، وفى الحياة كلها فى شغل شاغل .

وقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾

[سورة الفرقان : ٧٢]

ذلك هو خلق المسلم لأن شهادة الزور يترتب عليها إضاعة حقوق الناس ، وإشاعة للباطل وتزييف للحقائق ، وإهدار لأموال المسلمين .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " عن أبى بكره قال: قال - صلى الله عليه وسلم - ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ، ثلاثة - قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان منكناً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (١) .

والظاهر من السياق أن المراد لا يحضرونه ، ولهذا قال تعالى :

﴿...الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢) ﴿ [سورة الفرقان : ٧٢] .

يعنى لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مريرهم به مرئاً ولم يتدلسوا منه بشيء ، ولهذا قال : " مرئاً كراماً " و من أخلاقهم عباد الرحمن وهم المؤمنون حقاً ، أصحاب الخلق الرفيع ، والأدب العالى والزور الذى هو من حلية المؤمن ما ذكره القرآن من أخلاقهم فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا لَدَيْ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [سورة الفرقان : ٧٣]

وهى من أخلاق المسلم الذى إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا ما سمع القرآن زنته آياته إيماناً ، يقول الله - عزوجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٢] .  
 وذلك بخلاف الكافر الذى لا يؤثر فيه سماع كلام الله - عزوجل - بل يستمر فى غيبه ، وظل سائراً فى كفره، وضلاله .

يقول " مجاهد " - رضى الله عنه - لقوله تعالى :

﴿ لَمْ يَخِرُّوْا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

يعنى يسمعوا ، ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً .

ويقول " الحسن البصري " - رحمه الله تعالى - " كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم وأعمى " ، و يقول : والآية يتماهما :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ... ﴾ [سورة الأنفال: ٢] .

يقول قتادة - رضى الله عنه - أن " والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرؤا عنها صما وعميانا " يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم قد عقلوا الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وأخيراً ، فإن عباد الرحمن لا يكفيهم أنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً وأنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها بل يرحبون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم ، وان تكون لهم أزواج من نوعهم ، فتقربهم عيونهم ، وتطمئن بهم قلوبهم ، ويتضاعف بهم عدد "عباد الرحمن " ويرجون أن يجعل الله منهم قذوة طيبة للذين يتقون الله ويخافونه .

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَاهَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

[سورة الفرقان : ٧٤].

وهذا هو الشعور الفطري الايمانى العميق ، شعور الرغبة فى مضاعفة السالكين فى الدرب إلى الله ، وفى أوله الذرية والأزواج ، فهم أقرب الناس تبعه وهم أول أمانة يسأل عنها الرجال ، والرغبة كذلك فى أن يحس المؤمن أنه قدوة للخير ، يأتى به الراغبون فى الله ، وليس فى هذه من أمره ، ولا استعلاء ، فالركب كله فى الطريق الى الله تعالى .

وَسُئِلَ " الحسن البصري" - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية فقال :

أن يرى الله العبد المسلم من روجه و من أخيه ، ومن حميمة طاعة الله لا ، والله لا شيء اقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولدَ ولد ، أو خا ، أو حميما مطيعا لله - عزوجل - ، وقيل أنهم يسألون الله لأزواجهم واولادهم الهداية للإسلام .

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نضير عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال : طُوبَى لهاتين العينين اللّتين رأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم! لو بددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت.

فاستغضب، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبرهم الله على مناخرهم فى جهنم، لم يجيبوه، ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعثت عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من

جاهلية، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل، وفَرَقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تُقَرَّ عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار، وإنما التى قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَاهَبْنَا مِنْ

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٧٤].

قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسعدي، والربيع بن أنس: أئمة يُقْتَدَى

بنا فى الخير.

وقال غيرهم: هداة مهتدين "ودعاة" إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم، عن أبي هريرة: رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعوله أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية".

وأولئك المتصفون بهذه الصفات الخلقية يُجْرَن يوم القيامة بالجنة وسميت بالغرفة لارتفاعها، ويلقون فيها تحيةً وسلاماً.

يعنى يبتدأون بالتحية والإكرام ويلقون الاحترام والتوقير والتعظيم فلهم السلام وعليهم السلام، فان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب "سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار".

وجاء التعبير "بالغرفة" لأنها أكرم من "البهو" وذلك فيما اعتاده الناس فى دنياهم، عندما يستقبلون الأضياف، فإنما يستقبلونهم فى البهو أما الغرفة الداخلية فتكون خاصة بأهلها. فأولئك الذين سبقت صفاتهم يستقبلون فى الغرفة

بالتحية والسلام جزء صبرهم على شهوات النفس ، ومغريات الحياة ودوافع السقوط فى الرذيلة والاستقامة جهد جهيد لا يناله إلا الصابرون ، وأولو العزم .  
زينكم الصبر الذى يستحق أن يذكره الله تعالى فى القرآن الكريم .

وفى مقابل " جهنم " التى يتضرعون إلى ربهم أن يصرفها عنهم لأنها ساءت مستقراً ومقاماً ، يجزيهم الله الجنة خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً فلا مخرج لهم منها الا أن يشاء الله ، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام .  
أجل : إنهم عباد الرحمن تلك الخلاصة الصافية للبشرية والقودة الحسنة للناس أجمعين ، اللهم أهدنا بهداهم ، ووفقنا للسير على طريقهم ، والنسج على منوالهم .....  
آمين .

**وقد ندب الله - عز وجل - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الى الصّح والعفو وذلك بقوله تعالى :** ﴿ ..... فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر ٨٥] .

وقد قيل : هو الرضا الذى لا عتاب فيه ، وقال تعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُتُبِ وَالنَّيِّظِ

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الشورى: ٤٣]

وقوله تعالى : ﴿ لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصَبَرُوا

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٦] .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « رأيت قصوراً مشرفة على الجنة فقلت يا جبريل لمن هذه؟ ، قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين».

وقال " معاذ بن جبل " : " لَمَّا بَعَثَنِي النَّبِيُّ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ مَا زِلَ يُوصِيَنِي بِالْعَفْوِ فَلَوْلَا عَلِمَنِي بِاللَّهِ لَطَنَنْتُ أَنَّهُ يُوصِيَنِي بِتَرْكِ الْحُدُودِ " .

وقال " الحسن بن أبى الحسن " : " إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادِيًا .  
من كان له على الله اجر فليقمه ، فلا يقوم الا العافون عن الناس ، ثم تلى قوله - عز وجل:-

﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الشورى : ٤٠] .

وقال علىّ - كرم الله وجهه - " أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ ، أَقْدَرَهُمْ عَلَى الْعَفْوِ بِهِ .  
وكان المأمون - رحمه الله تعالى - يحب العفو ويؤثر؛ ويقول : لقد حبيب إلى العفو حتى أنى أخاف أن أثناب عليه .

وكان يقول : لو عَلِمَ أَهْلُ الْجَرَائِمِ لَدُنِّي فِي الْعَفْوِ لَارْتَكَبُوهَا ، وقال : لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلى الا بالجنايات .

وقال علىّ - كرم الله وجهه- : " إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ " الْأَحْنَفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ :

" مَا إِذَا نَى أَحَدٌ إِلَّا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : إِنْ كَانَ فَوْقِي عَرَفْتُ لَهُ فَضْلَهُ وَإِنْ كَانَ مِثْلِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ دُونِي أَكْرَمْتُ نَفْسِي عَنْهُ .

و كان يقول : " وجدت الاحتمال صفة من الرجال ومن عادة الكريم إذا قدر غفر وقاتل العرب : سؤدد مع الانتقام ، والذى يجب على العاقل إذا أمكنه الله

تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وإن كان لا يريد من الانتقام فليرفق فى انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى .

ويقول الشاعر :

فهبنى مسيئاً كالذي قلت ظالماً      فغفواً جميلاً كي يكون لك الفضل  
فان لم أكن للعفو منك لسوء ما      أثيت به أهلاً فأنت له أهل<sup>(١)</sup>

وكان " معاوية - رضى الله عنه - " يُعَرِّفُ بالحلم .

وقيل إنه كان " لعبد الله بن الزبير " - رضى الله عنهما - أرضاً ، وكان له فيها عبيداً يعملون فيها وإلى جانبها أرض " لمعاوية " وفيها عبيد يعملون فيها فدخل عبيدُ " معاوية " فى أرض " عبد الله بن الزبير " فكتب عبد الله بن الزبير " كتاباً " لمعاوية بن أبى سفيان " أما بعد : يا " معاوية " إن عبيدك قد دخلوا فى أرضى ، فأنههم عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن ، والسلام .

فلما وقف " معاوية " على كتابه ، وقرأه دَفَعَهُ الى ولده " يزيد بن معاوية " فلما قرأه قال له " معاوية " : يا بني ما ترى ؟ .

قال " يزيد بن معاوية " : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه .

فقال " معاوية " لابنه : يا بني : ثم أخذ ورقةً وكتب فيها رداً على كتاب عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - يقول له فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وساءني ما ساءه والدينا بأسرها هينة عندي فى جنب رضاه ، تنازلت عن أرضى فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال ، والسلام ، فلما وقف " عبد الله بن الزبير " - رضى الله عنه - على

1- المستطرف للابشيهي ص ٣٠٠ وما بعدها .

كتاب " معاوية بن أبى سفيان " - رضي الله عنه - كتب إليه : " قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه الرأي الذى أحله من قريش هذا المحل ، والسلام .

فلما وقف " معاوية " على كتاب " عبد الله بن الزبير " - رضي الله عنهم أجمعين- وقرأه رماه الى ابنه " يزيد بن معاوية " فلما قرأه " يزيد " تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه : " يا بني من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب ، إذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فداؤه بمثل هذا الدواء .

وغضب " الرشيد " على " حميد الطوسي " ، فدعا له بالرمح والسيف فبكى فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفرغ من الموت لأنه لا بد منه وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط عليّ ، فضحك وعفى عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدع .<sup>(١)</sup>

و يقول الشاعر :

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع  
ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو  
واغتاز " عبد الملك بن مروان " من رجل . فقال : " والله لئن أمكننى الله منه لأفعلن له كذا وكذا ، فلما صار بين يديه قال له : " رجاء بن حيوه " : يا أمير المؤمنين : قد صنع الله ما أحببت ، فاصنع ما أحب الله ، فعفا عنه ، وأمر له بصله قُربى .

ويقول الحسن البصرى رضى الله عنه : أن أفضل رداء ترى به الإنسان ، الحلم وتقبل الحليم عليهم والسفيه عليهم .<sup>(٢)</sup>

1 - المستطرف ، ص ٣٠٣ و ما بعدها .

2- ذاته ، ص ٣٠٩ .

## " الوفاء فى المكاييل "

ومن الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم ، والتى يسعد بها الناس فى حياتهم وبها يرقى المجتمع الإسلامى ، ويعيش فى أمن وأمان حقيقيين وهناءة ، ورغد فى المعيشة كما ترشدنا الى السلوك القويم ، ذلكم التوجيه الربانى الكامن فى قوله -

عز وجل - : ﴿ **أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ** ﴿١٨١﴾ **وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْمَأَسْتَقِيمَ** ﴿١٨٢﴾

[سورة الشعراء ١٨١ : ١٨٢].

هذه قصة سيدنا " شعيب " - عليه السلام - ومكانها التاريخى قبل قصة سيدنا " موسى " - عليه السلام - تجيء هنا فى مساق العبرة كبقية القصص فى هذه السورة . وقد بدأهم " شعيب " - عليه السلام - وبما بدأ به كل رسول قومه .

من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم وقد كان شأنهم أن يطففوا فى الميزن والمكيال وأن يأخذوا قسراً ، قهراً وعنوةً ، وبالغضب زيادة عن حقوقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشترؤا بثمن بخس ، ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدواهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها .

وقد أمرهم رسولهم بالعدل ، والقسط فى هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حُسْنُ معاملة ، ولا تستطيع أن تغض عن الحق والعدل فى معاملات الناس ، وأمرهم سيدنا " شعيب " - عليه السلام - أن يزنوا بالميزن العدل السوي وألا ينقصوا حقوق الناس بأية طريقة كانت هذه الطريقة بهضم الحقوق أو الغصب ووالأخذ قسراً وقهراً أو الغبن والغش ونحو ذلك فياً أمرهم - عليه السلام - بإيفاء الكيل والميزن ، وينهاهم عن التطفيف فيها ، فقال لهم ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه تاماً لأنفسكم .

وؤافياً إذا كان الكيل لكم ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون والمراد بالقسطاس الميزن قيل هو " القبان " وهو معرب من الرءمية كما قال بعضهم ، ويقول

"مجاهد" - رضي الله عنه - القسطاس هو العدل باللُّغة الرئمية ، ويقول " قتادة " - رضي الله عنه - القسطاس هو العدل ، ولا تُتَقْصوهم أموالهم .  
وهو المراد بقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٨٣].

هذا هو الخلق القرآني الكريم فى المعاملات خاصة الكيل والميزن حيث أمر الله بالعدل فيهما ، وعدم الغُبن ، والظلم ، والغش ، والغصب ، فهذه أمور تنقص إيمان المؤمن وتهدد كرامته لأنها سرقة بكل المعاني ، واستيلاءً على حقوق الغير بطريق غير مشروع ، وقد نهى الإسلام عنه فى القرآن الكريم ، وهى توجيهات ريانية إذا ما تحلى بها المسلم كان خلقاً بآن يكون مسلماً صادقاً ومؤمناً صدوقاً يقول الله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) ﴾ [سورة المطففين: ١: ٥] .

## " بر الوالدين "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، والتي تأمر ببر الوالدين ، والإحسان إليهما ورعاية

حقوقهما قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٨] .

وهذا أمر من الله – عز وجل- وهو أمر مؤكد بالإحسان الى الوالدين ، غاية الإحسان ، لأنهما سبب وجوده ، ولهما غاية الفضل والإحسان ، الوالد بالإنفاق والوالدة بالإسفاق ، يقول الصاوي : " وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون أن يأمر الوالدين ببر الأولاد ، لأن الأولاد جُبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم أما الآباء فهم محبوبون على الرحمة والعطف والشفقة ، والخوف على الأولاد فولكلهم لما جبلوا عليه ، وان يبذلا كل ما فى وسعهما يعنى الوالدين ، وحرصا كل الحرص على تشرك بالله ، وتكفر به لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، فلا تُطِعُهما فى ذلك حيث إنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والى مرجع الخلائق جميعا مؤمنهم وكافرهم ، بَرَّهم وفأجرهم فأجازى كلا بما عمل ، وفيه وَعْدٌ حَسَنٌ لمن بَرَّ والديه واتبع الهدى وأيضاً عِيداً لمن عَفَى والديه واتبع سبيل الرضى .

فإن الوالدين لهم فضل كبير، كما أن لهم رحماً ، وان لهما واجبا مفروضاً : واجب الحب والكرامة والاحترام والكفالة ، ولكن ليس لهما من طاعة فى حق الله وهذا هو الصيراط .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٨] .

إن الصلة فى الله هى الصلة الأولى ، والرابطة فى الله هى العروة الوثقى فان كان الوالدين مشركين فلهما الإحسان ، والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع ، وان هى إلا الحياة الدنيا ثم يعود الجميع الى الله ويفصل ما بين المؤمنین والمشركين فإذا المؤمنون أهل ورفاق ولولم يُعد بينهم نسب ولا صهر .

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٩] .

وهكذا يعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم فى الحقيقة ، وتذهب رباط الدم والقربة والنسب والمصاهرة ، وتنتهى بانتهاء الحياة الدنيا فهى رباط عارضة وأيست أصلية وذلك لانقطاعها عن العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، ويرى لنا الترمزى عند تفسير هذه الآية أنها نزلت فى " سعد بن أبى وقاص " - رضى الله عنه - وأمه " حمنة بنت أبى سفيان " وكان باراً بأمه ، فقالت له : " ما هذا الذين الذى أحدثت ؟ والله لا أكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أواموت ، فتتغير بذلك أبد الدهر ، ويقال لك : يا قاتل أمك .

ثم أنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ، ولم تشرب فجاء " سعد " إليها .  
وقال : يا أمه لو كان لك مائة نفس وخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني فكلى إن شئت وان شئت فلا تأكلى ، فلما يأيست منه أكلت وشربت .

فانزل الله هذه الآية أمرا بالبر ، والإحسان إليهما وعدم طاعتهم فى الشرك وهكذا ينتصر الإيمان على فتنة القرابة والرحم ، واستبقى الإحسان والبر ، وإن المؤمنین لعرضه لمثل هذه الفتنة فى كل آن ، فليكن بيان الله وفعل " سعد ابن أبى وقاص " - رضى الله عنه - غايةً للنجاة والأمان ومسئلاً قوياً وطريقاً صحيحاً ، ومنجاةً للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله - عز وجل - فى سورة الإسراء :- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ  
وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا  
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِى صَغِيرًا ﴿٣٤﴾  
[سورة الإسراء ٢٣ : ٢٤].

ويقول الله - عز وجل - : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ  
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ [سورة الرعد : ٢١]  
عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : " سألت النبي -  
صلى الله عليه وسلم - أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟  
قال : " الصلاة على وقتها " ، قلت : ثم أى ؟ ، قال : " بر الوالدين " ، قلت : ثم أى ؟  
قال : " الجهاد فى سبيل الله (١) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :  
" لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا ، فيشتريه ثم يعتقه " (٢) .  
وعنه أيضا - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :  
" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم  
الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " (٣) .  
وعنه - رضى الله عنه - قال : جاء رجل الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟  
قال : أمك .  
قال : ثم أى ؟ .

1 - متفق عليه .

2 - رواه مسلم .

□ صفوة التفاسير ، ج ٢ ، ص ٢٩ و ما بعدها .

□ الكشف للزمخشري .

□ فى ظلال القرآن الكريم ، ج ٥ ، ص ٢٧٢٢ و ما بعدها .

3 - متفق عليه .

قال : أمك . قال : ثم أى ؟ .

قال : أمك . قال : ثم أى ؟ قال : أبوك . (١)

وفى رءاية أخرى يا رسول الله : مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحَسَنِ الصُّبْحَةِ ؟

قال : أمك . ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك ، ثم أدناك ، أدناك . والصحابة بمعنى الصُّبْحَةِ .

وعنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " رَغِمَ أَنْفٌ ، ثم رَغِمَ أَنْفٌ ثم رَغِمَ

أَنْفٌ ، من أدرك أبويه عند الكبر ، إحداهما أو كليهما فلم يدخل الجنة . (٢)

ومعنى رَغِمَ أَنْفٌ هو كناية عن الذل ، كأن انفه لصق بالتراب هواناً .

وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من

أحب أن يُبْسَطَ له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه . (٣)

ومعنى " وينسأ له فى أثره " أى يؤخر له فى أجله وعمره .

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى توجه المسلم والإنسانية بعامه إلى حسن الخلق

مع الوالدين خاصةً حال الكبر حيث يكون الأب والأم فى ميسر الحاجة إلى العناية

والرعاية ، والحدب عليهما ، والعطف والرفق ، وحسن المعاملة ، فهى توجيهات ربانية

سُجِّلَتْ فى آيات قرآنية كريمة إرشادا ، وتوعيةً وتوجيهاً إلى أن تقوم الساعة ، فيقول الله

تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ ، وَهُوَ يَعِظُهُ ، يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَتْهُ فِي عَمِيمٍ أَنْ أَشْكُرَ

لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

تَطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ

فَأَنْبِئْكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

1- متفق عليه

2- رواه مسلم .

3- متفق عليه .

صَخْرَةً أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ  
 وَثِقَالِ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ  
 خَيْرٌ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾  
 وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿سورة لقمان ١٢ : ١٩﴾

ويقول الإمام القرطبي : " وفى الآية تعريف قبج رفع الصوت فى مخاطبة  
 والملاحقة ، والملاحقة هى الملاومة والمباغضة ، ويكون ذلك بقبح أصوات الحمير ، لأنها  
 عالية .

وفى الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إذا سمعتم نهيق الحمير  
 فتعودوا بالله من الشيطان ، فإنها رأَت شيطاناً . " وَوَيْىَّ : " أنه ما صاح حمار ، ولا نج  
 كلب إلا أن يرى شيطاناً " .

قال سفبان الثوري- رحمه الله - :

" صياح كل شيء تسبيح ، إلا نهيق الحمار .

وقال " عطاء " رحمه الله تعالى - " نهيق الحمير دعاء على الظلم " . (١)

وهذه الآية تعد من الأدب العالى أدب من الله تعالى بترك الصياح فى وجوه الناس  
 تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملةً ، وكانت العرب تفخر بجهازة الصوت الجهير ، وغير  
 ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتاً ، كان أعز . ومن كان أخفض صوتاً كان أدل ، حتى أن  
 شاعرهم يقول :

جهير الكلام جهير العطانس جهر      جهير الرواد جهير النعم  
 ويعود على أليين عدوى الظليم      ويعلو الرجال بخلق علم

فنهى - الله وتعالى - عن هذه الأخلاق الجاهلية بقول تعالى : ﴿...إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ يعنى لوان شيئاً يهاب ، يخشى لصوته لكان الحمار أولى بتلك الخشية ، وذلك الخوف فجعلهم فى المثلٍ سواءً .

وقوله تعالى " لصوت الحمير " واللأم هنا للتوكيد ، ويحد الصوت وإن كان مضافاً إلى الجماعة لأنه مصدر ، والمصدر يدل على الكثرة وهو مصدر " صات يصوت صوتاً فهو صائت " .

ويقال صَوَّتَ ، تصويئاً فهو مصوت ، ورجل " صَاتَ " أى شديد الصوت بمعنى صائت ، كقولهم " رجل " مال ، ونال " أى كثير المال والنوال .<sup>(١)</sup>

إنها لعظة غير مهمة فما يريد الوالد لولده إلا الخير ، وهاهو ذا لقمان الحكيم " يُنهِ ابنه عن الشرك ، ويعلم لذلك بقوله تعالى " إن الشرك لظلم عظيم " ويؤكد هذه الحقيقة مرتين . مرة بتقديم النهى وفصل عِلته ، والثانية والنصيحة من الوالد لولده مَبْرأة من كل شبهة ، وفى ظل نصيحة الأب لابنه يعرض للعلاقة بين الوالدين والأولاد فى أسلوب رقيق ومع هذا فإن رابطة العقيدة مقدمة على كل العلاقات وتوصية الولد بالوالدين مذكورة فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا ، وجلها ومعظمها فى حالة " الوأد " وهى حالة خاصة ، حيث إن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه ، وذلك لضمان امتداد الحياة ، فهما يبذلان من عمرهما ، وكدهما ، وتعبهما ما يكون سبباً فى إسعاد الأولاد ، يتجلى ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿...حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا...﴾ [سورة لقمان: ١٤]

أما الأولاد فهم فى حاجة الى توصية الأولاد بالوالدين ، وذلك ليلتفت الأولاد الى ذلك الجيل المُضحى فى سبيل إسعاد الأولاد والذى سكب عصارة عمره ، وروحه واعصابه لذلك الجيل المتقبل للحياة ، ولا يستطيع الأبناء مكافأة الوالدين على ما بذلاه من غالٍ ومرتخص فى سبيل الأبناء ولو ضحى هؤلاء الأبناء بالعمر نفسه .

وَيُرْوَى لَنَا " الحافظ أبو بكر البزار " فى مسنده - بإسناده - عن يزيد عن أبيه إن رجلا كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - هل أدت حقها ، قال : لا ، ولا بزفرة واحدة . يعنى بزفرة فى حمل ولا فى وضع ، وهى تحمله وهنأ على وهن يعنى ضعفاً على ضعف .

ثم نرى القرآن الكريم يرتب الواجبات فيجىء شكر الوالدين " أن اشكر لى ولوالديك " ، ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الوصية الأخرى " الى المصير " حيث ينفع رصيد الشكر المذكور ، ولكن رابطة الوالدين بالوليد إنما تأتى فى ترتيبها بعد وشائج العقيدة فبقية الوصية قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [سورة العنكبوت : ٨]

فهنا يسقط واجب الطاعة حيث لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وتعلو وشيعة العقيدة بيد أن الاختلاف فى العقيدة لا يسقط حق الوالدين فى المعاملة الطيبة والصحة الكريمة ، والطاعة والإحسان والبر بها ، " وصاحبهما فى الدنيا معرّفاً " ورؤى أن هذه الآية وآية العنكبوت ، وآية الاحقاف نزلت فى " سعد بن أبى مالك " .

ثم تجىء الوصية الأخرى لتقرر القضية الأخرى ، وما فيها من حساب وجزاء عادل ﴿ يَبْئُتْ بِهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة لقمان : ١٦] .

وهو اللطيف الخبير بخفايا الغيوب ، ثم تأتى الوصية الأخرى فى قوله تعالى :

﴿ يَبْئُتْ أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [سورة لقمان : ١٩] .

وهذا هو طريق العقيدة وهو توحيد الله ، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله ومن الابتلاءات فى المال والنفس " إن ذلك من عزم الأمور " وهنا يقطع الله - عز وجل - الطريق على المترددين بعد المضي فى الطريق بعزم وتصميم .

وبمعنى القرآن أمرنا بالأخلاق الكريمة فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١٩) [سورة لقمان ١٨ : ١٩].

"والصعر" داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه ، وهو تعبير يفيد التنفير من كل حركة تشبه هذه الحركة ، ونهى عن المشي فى خيلاء وعجب ، وهى حركة يمقتها الله ، ويمقتها الناس ، "واقصد فى مشيك" والمراد بالقصد هنا الاعتدال فى كل شيء ، وعدم الإسراف وعدم إضاعة الطاقة فى الخيلاء والتبختر ، والإعجاب بالنفس .

ونحن نرى أن القصد فى المشي سواء أكان رجلاً أو ممتطياً صهوة دابة كالفرس والبغل والحمار ، والسبارة . فهنا يلفت القرآن نظرنا إلى الاعتدال فى المشية فقليل أن ينظم المرور قوازين السيارات فى المشي والسبارة فيحدد السرعة على الطريق الزراعي والصحراوي فعلى الطريق الزراعي مثلاً يقول يجب لن تكون سرعة السيارة بحيث لا تزيد عن تسعين كيلو متر مثلاً ، وفى الطريق الصحراوي لا تزيد السرعة عن عشرين ومائة كيلو متر مثلاً .

فالإسلام ينظم المرور بأسلوب مهذب ، ويمنأى عن الخيلاء ، والكبرياء والعجب فكثيراً ما نرى بعض أصحاب السيارات ينطلق الواحد منهم كالسهم فى الرمية غير عابئ ولا مكترث بالأطفال وكبار السن ، وذوى العاهات ، فيتسبب هذا العجب وعدم القصد فى المشي عن الحوادث وكوارث ، حتى أنهم يسمون قتلى السيارات " بشهداء الأسفلت " فانظر أحمى المسلم الى روعة القرآن الكريم ، وعظمته وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

كما وجهنا القرآن الكريم الى خفض الصوت فى أدب ، وَخُلُقٌ . أما الحِدَّة والغلظة ورفع الصوت لا يصدر إلا من شاكٍ فى نفسه ، أو مركب نقص لديه . (١) .

ويعنى القرآن الكريم فى توجيهاته الراشدة ، وحكمة العوالى ومعانيه الغوالى والإرشاد الى الأدب الرفيع ، فيبدأ برسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم – فى بيته ولا غرر فهو الأسوة الحسنة ، والقُدوة العظيمة ، وخطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – خطاب لأُمَّته ، ونهيه نهى لأُمَّته " قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا " .

فياأمر الله – عزوجل- نبيه – صلى الله عليه وسلم – فيقول له بصيغة الأمر " يا أيها النبي قل لأزواجك اللاتي تآذيت منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة فى النفقة لئن رغبت فى سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الكاذب ، وزخرفها الخداع ، فتعالين حتى أُدفع لكن متعة الطلاق ، وأطلقكن طلاقاً من غير ضِرَارٍ وإن كنتم ترغبن فى رضوان الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – والفوز بموفور النعيم فى الدار الآخرة فإن الله سبحانه وتعالى قد هياً للمحسنات منكن بمقابلة إحسانهن أجراً كبيراً ، وثواباً عظيماً ألا وهو الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

يقول صاحب البحر المحييط : " لَمَّا نصر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – وفرق عنه الأحزاب ، وفتح عليه " قريظة والنضير " ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله : " بنات كسرى وقيصر فى الحلي والحلل ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق " .

1- الظلال ج ٥ ، ص ٢٧٨٨ وما بعدها .

□ تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ وما بعدها .

□ صفوة التفاسير ج ٢ ، ص ٤٩١ وما بعدها .

□ الكشف للزمخشري .

□ تفسير ابن جرير الطبرى .

□ تفسير النسفى .

□ التفسير الكبير للفخر الرازى .

وهن بهذا الأسلوب وذلك الكلام آلمين وآذنين قلب النبي - صلى الله عليه وسلم- بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، والعيش فى بحبوحة ورغد ، وإلباس الحلي والحلل مثل بنات كسرى وقيصر ، وأن يعاملهن بما يعامل به بنات الملوك والأكابر من أزواجهم .  
فأمر الله - عزوجل - أن يتلو عليهم فأنزل فى أمرهن ، وأزواجه إذ ذلك تسع زوجات . (١)

وهو أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم- بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيرهن ممن يحصل لهن عنده الحياة الناعمة وزينة الدنيا وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن - الله ورسوله والدار الآخرة .

فجمع الله تعالى بعد ذلك بين خير الدنيا ، وسعادة الآخرة فقول السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنها - فيما يريه البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاءت حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت فبدأ بى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : " إنى ذاكرك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمران بفراقه ، قالت : ثم قال : " إن الله تعالى قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ...﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨]

ذكر الآيتين فقلت له ففى أى هذا استأمر أبوى فأنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ثم فعل أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل ما فعلت ، ففرح بذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - ويرى إنها قالت مجيبة النبي - صلى الله عليه وسلم : لا أوامر فى ذلك أبوى " أبا بكر " و " أم ريمان " - رضى الله عنهما - فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم استقرأ الحجر فقال : " إن عائشة - رضى الله عنها - قالت كذا وكذا ، فقلت

جميعاً ، يعنى بقية نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - ونحن نقول مثل ما قالت عائشة - رضي الله عنهن . (١)

وقوله تعالى : ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ يَفْحَشَةٌ مُّبَيَّنَةٌ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٠] .

يعنى من تفعل منكن كبيرة من الكبائر أو ذنبا تجاوز الحد فى القبح ويقول "ابن عباس" - رضي الله عنهما - يعنى النشون وسوء الخلق ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، أى يكون جزؤها ضعف جزئ غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة ، وكان ذلك العقاب سهلاً ميسوراً على الله - سبحانه وتعالى - لا يمنعه منه كونهن نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفى الآية " تلوين للخطاب " فبعد أن كانت المخاطبة على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة وذلك لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن ، يقول الصاوي وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - إظهاراً لفضلهن وعظم قدرهن عند الله تعالى .

لأن العتاب والتشديد فى الخطاب مشعر برفعة رتبتهم . وذلك لشدة قربهن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث إنهن أزواجه وامهات المؤمنين . فبعد القرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكون القرب من الله تعالى .

ويقول صاحب لطائف الإشارات زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة ولذا فصل حد الأحرار على العبيد يعنى جعل حد الحرضعفى حد العبد وعتوب الأنبياء بما لا يعاقب به غيرهم ، وتقليل ذلك من أمارات النقص ، فلما كانت منزلتهن فى الشرف تزيد على منزلة جميع النساء ضاعف عقوبتهن على إجرامهن ، وضاعف ثوابهن على طاعتهن ، وقرأ المكي وسيئة " مبينة " بفتح الباء وهى عصيانهم رسول الله - صلى الله

1 - تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ج ٣ ، ص ٤١٣ ما بعدها .

عليه وسلم - ونشودهن ، وكل فاحشة نعتت فى القرآن الكريم " بالبينة " فهى بالنطق ولم تنعت بها زنا .

ولذلك قيل : ليست المعصية فى القرب كالمعصية فى البعد . ولذلك كان الذم للعاصي العالم أشد منه العاصي الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح .

وفى الحديث " أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه " (١) .  
ولقوة الجرأة فى العالم دون غيره ، ولهذا فضل حد الأحرار على العبيد ولم يرجح الكافر .

وكان ذلك الفعل وهو يصف العذاب هيناً سهلاً على الله - سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ يَفْتَنُ يَنْكُرْ لِلَّهِ وِرْسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾

[سورة الأحزاب : ٣١].

يعنى يستمر على الطاعة لله ورسوله وتعمل صالحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ أى مثل ثوابي غيرها من النساء ، مرةً على الطاعة ، وأخرى على طلبهن رضا النبي - صلى الله عليه وسلم - ، بالقناعة ، وحسن المعاشرة ، وقرأ " حمزة الكسائى " بالغيب على لفظ " من يعمل ، و " يؤتها " بالياء ، وقرأ الباقر " تعمل " و " نُؤْتِهَا " و " اعتدنا لها رزقاً كريماً " يعنى رزقاً عظيماً جليل القدر وهو الجنة ، وهل هناك أعظم وأجل من الجنة !!! .

وقرأ يعقوب " تأت ، وتفتن " ، بالتاء حملاً على المعنى .

وتقال قوم : إن الفاحشة إذا وردت مُعْرِفَةً فهى " الزنا " و " اللواط " .

وإذا وردت منكراً ، فهى سائر المعاصي وإذا وردت " منعونة " ، يعنى " موصوفة " فهى عقود الزيج ووفساد عِشْرَتِهِ . وقيل " فاحشة مبينة " تعم جميع المعاصي . وكذلك الفاحشة كيف وردت ، وقرئ " يضاعف " " بكسر العين " وذلك على إسناد الفضل إلى الله

1- رواة الطبراني فى الصغير ج ١ ، ص ١٨٢ والبيهقى فى الشعب حديث رقم ١٧٧٨ .

تعالى ، وقرأ " العذاب " وهذه قراءة ابن محيصن وهذه مفاعله من واحد ، مثل : طارت النحل ، وعاقبت اللص .

وقرأ " نافع وحمزة والكسائى " " يضاعف " بالياء وفتح العين مع رفع " العذاب " يعنى : يضاعف لها العذاب " و تلك قراءة الحسن وابن كثير وعيسى .

وقرأ ابن كثير وابن عامر " نضعف " بالنون ، وكسر العين المشددة " العذاب " بالنصب .

وهذا التضعيف فى العذاب إنما يكون فى الدار الآخرة .

وهذا أمر حسن لأن نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يأتين بفاحشة توجب حداً .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنه : – ما بغت امرأة نبي قط ، وإنما خانت

فى الإيمان والطاعة .

ويقول بعض المفسرين : إن العذاب الذى توعدن به " ضعفين " هو عذاب

الدنيا والآخرة .

فكذلك يكون الأجر أيضاً فى الدنيا والآخرة والإشارة هى أن من شأن الملك

أو الرئيس معاتبة الوزراء ومن يعملون تحت سلطانه ، ومن حقه أيضاً مكافأتهم

وحسابهم ، وعقابهم وعزهم ، وثابتهم ، لأنه يملك ذلك وهم تحت قيادته ورهن إشارته .

يقول القشيري : " زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة مثل " حد

الحر " و " العبد وتقليل ذلك من أمارات النقص ولما كانت منزلتهن فى الشرف تزيد وترى

عن منزلة جميع النساء تضاعفت عقوبتهن فى إجرامهن وتضاعف ثوابهن على طاعتهن

فقال : ومن يقنت منكن لله ورسوله . الآية .

ثم يأمر الله – عز وجل – نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – إن لا يخضعن

فى القول وألاً يتكلمن بكلام لين مع الرجال حتى لا يثرن الفتنة ويطمع الذى فى قلبه

مرض وكانت نساء العرب تخضع فى القول مع الرجال ويتحدثن مع الرجال بلين وتكسر

وترخيم صوت ورقة بالغة ، فقال الله – عز وجل – لنساء النبي – صلى الله عليه وسلم : –

يا أزواج النبي - عليه الصلاة والسلام - لستن كجماعة من جماعات النساء ،  
فليس هناك جماعة مسلم تساويكن فى الفضل ، وان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
ليس كأحد من الرجال .

يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - انى لست كهيتتكم ، انى أطمع وأسقى " .  
" فلا تئرن القول " ، بل يكون كلامكن مع الرجال جزلاً وفضلاً ، ولا يكون تكسراً  
ورقهُ حتى لا يطمع الذى فى قلبه خبت وئوم ومرض وشك ونفاق .

وقلن قولاً حسناً جميلاً معرئفاً فى الخير ، والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ،  
مثل الصلاة فى المسجد بشرطه ، وذلك لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :-  
" لا تمنعن إماء الله مساجد الله واخرجن وهن تفلات - وفى رءاية أخرى -  
وبيوتهن خيرلهن .

فعن أنس - رضى الله عنه - قال : جئن النساء إلى رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - ، فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل ، والجهاد فى سبيل الله فما لنا عمل  
ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :-  
" من تعدت - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين  
فى سبيل الله تعالى .

ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة عورة فإذا خرجت  
استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون برءحة ربها وهى فى قعر بيتها " .  
وقال عليه السلام : " صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها  
وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها " .

ويقول " مجاهد " : كانت المرأة تخرج وتمشى بين يدي الرجال ، فذلك تبرج  
الجاهلية .

وقيل أن المرأة فى الجاهلية كانت تخرج متبرجةً وكانت لهن مشية تكسر وتقبح  
فنهى الله تعالى عن ذلك .

فالمشية الغير معتدلة والتي تثير الغرائز خاصة لدى الشباب منهي عنها شرعاً حيث أنها تدفع الشباب خاصة مرضى القلوب الى ارتكاب المناكر واجترح السيئات فانظر الى ما يفعله نساء هذا العصر الأُنكر من تبرج بزينهٍ وتكسر فى الكلام وميوعة وعمز ولمز كل ذلك حرام شرعاً ونهى عنه ديننا الحنيف حفاظاً على المرأة وكيانها ، وصونا للحرمان وحفاظاً على الأعراض ، وسلامة لإيمان المؤمنين .

وفى هذه الآيات نهى الله – سبحانه وتعالى – النساء عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فانظر الى هذا المعنى العظيم حيث إن الله تعالى أمرهن بالخير من توحيد الله والذى يتمثل فى إقامة المسلم للصلوات المفروضة ، وإيتاء الزكاة وفيها إحسان للخلق ، ومساعدة للمعوزين ، ومساندة المحتاجين .

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه كان يقول :

﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾

[سورة الأحزاب: ٣٣].

إنما نزلتُ فى نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – خاصة .

والمراد " بالرجس " الأفعال الخبيثة والأخلاق الرديئة ، فالأفعال الخبيثة هى

الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما جل وما قل .

والأخلاق الدنيئة هى : الأهواء والبعد مثل البخل والشح ، وقطع الرحم .

ويريد بهم الأخلاق الكريمة مثل : الجود ، والإيثار ، السخاء و صلة الرحم ، ويديم لهم :

" العصمة والتوفيق والسداد ، ويطهرهم من الذنوب والعيوب . واذكرن عظيم

النعمة ، و جليل الحالة التى تجرى فى بيوتكن من نزيل الوحي ، ومجيء الملائكة ، وحرمة

الرسول – صلى الله عليه وسلم – والنور الذى يُقْتَنَسُ فى الأفاق ونور الشمس الذى ينبسط

على العالم ، فاعرفن هذه النعمة ، وارعين هذه الحرمة .

وَعَرِفْ هُنَا بِمَعْنَى " ذَكَرَ الْفَضْلَ " .



بها ، وامهرها النبي - صلى الله عليه وسلم - عشرةً دنانير وستين درهماً وملحقة ودرعا وازرا ، وخمسين قدراً من طعام ، وثلاثين صاعاً من تمر .

وقيل إنها نزلت في " أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط " - رضي الله عنهما - وكانت أول من هاجر من النساء ، فوهبت نفسها للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقبلها .  
وقال : " زوجتها زيد " فسخطت هي وأخوها وقالوا :

" إنما أردنا النبي - صلى الله عليه وسلم - " والأولى أصح .

ومن يعص الله ورسوله فيما اختار وقضى فقد ضل ضلالاً مبيناً واضحاً ظاهراً بينا .

ثم مكثت " زينب بنت جحش " عند " زيد " زماناً ، ثم طُلِّقت منه وتزوجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمر من الله وذلك لهدم قاعدة النبي والتي كانت في الجاهلية ، والقصة معروفة مشهورة ، فكان ذلك التزويج بأمر من الله وحكمة بالغة .

وهي هدم قاعدة التبنّي والتي كانت في الجاهلية ثم تبنى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - " زيداً " فكان يدعى " زيد بن محمد " فدعى بعد ذلك لأبيه " أَدْعُوهُمْ

لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ..... ﴿سورة الأحزاب : ٥﴾ .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

النَّبِيِّنَّ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۗ ﴾ [سورة الرعد : ٤٠] .

## " مراعاة المشاعر "

ثم يبين الله - عزوجل - الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون والآداب الرفيعة التى يجب أن يكون عليها المسلمون عند دخولهم البيوت ، وذلك لما لها من الحرمة والكرامة والسترصيانة للحرمات ، وحفاظا للأعراض ، وستر العورات ، وعدم الاختلاط الذى يؤدى الى الانحراف ، ونشر الفساد فى الأرض فلما أن ذكر الله - عزوجل - أحوال النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أزواجه ذكر الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم - من الاستئذان ، وعدم الإثقال ، ثم يبين شرف الرسول - عليه الصلاة والسلام - وذلك بصلاة الله والملائكة عليه ، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة ، وما يعقبها من أهوال لأهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء فى دار البقاء .

فقال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِىءُ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِىءُ مِنَ الْحَقِّ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ، مَنْ بَعْدَهُ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٣].  
و قال ابن عباس - رضى الله عنه :-

" كان ناس من المؤمنين يتحينون طعام النبي - صلى الله عليه وسلم - فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت الآية .  
وعن عائشة - رضى الله عنها - أن عمر - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلوا مرتتهن أن يحتجبن .

" فنزلت آية الحجاب : ﴿..وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ...﴾ .

وعن السعدى أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل فإذا رآوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا " هذه حرة " ، وإذا رآوها بغير قناع قالوا : " أمة فأذوها " فأنزل الله عز وجل - :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِبْنَ عَنْهُمْ مِنْ جَلْبِيهِمْ ذَلِكُمْ أَدْنَىٰ أَنْ يَعْرِفَنَ فَلَا يُؤْذِنُهُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب : ٥٩]

والإضافة فى الآية للتشريف والتكريم ، والآية توجيه وإرشاد للمؤمنين لهذا الأدب الرفيع السامى ، والمعنى " لا تدخلوا بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأي حال من الأحوال إلا بعد الإذن لكم منه - عليه السلام - مراعاةً لحقوق نساءه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإتقال عليه إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين لنضجه واستوائه ، ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فادخلوا فإذا أكلتم فانتشروا وتفرقوا وانصرفوا إلى دُوركم ولا تكتثوا بعد تناولكم الطعام فهذا أدبٌ عالٍ ، وتوجيه راشد ونهى اطاله المكث والجلوس بعد تناول الطعام للتحدث والكلام والمحاورة بعضهم البعض ، فان هذه الخصلة وتلك العادة تؤنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتضايقه ، ويمنعه ذلك الصنيع من قضاء مصالحه ، أو الإخلاد الى الراحة ، فيستحى من إخراجكم وحياءه يمنعه من أن يأمركم بالخروج والانصراف لخلقه الرفيع وأدبه الجم ، والحياء الذى ما بعده حياء ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهاره ، وتبيانه لجميع المؤمنين .

يقول الإمام " الثعالبي " : " حسبك من النُقلاء إن الشرع لم يحتلمهم ، وإذا أردتم حاجة أو مسألة من زيجات النبي - صلى الله عليه وسلم - فاسألوه من وراء حجاب وبرخ وحاجز فان ذلك أظهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأتقى للريبة والتهمة والشك .

ولا يليق بكم أن تفعلوا شيئاً من هذه الأشياء التى يتأذى منها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو النور الذى هداكم الى الرشد ، واخذ بأيديكم إلى الصراط السوي المستقيم واهتديتم الى الحق بواسطته - صلى الله عليه وسلم - ، ولا أن يتزجوا من بعده أزواجه وتلك خصوصية الرسول - عليه السلام - وتكريم وتشريف أيضا فهو - عليه السلام - ليس مثل الناس ، ولا زجاته ككل الزجات " وما منا إلا له مقام معلوم " ومقام حضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - مقام رفيع عال لا يرتقى إليه نبي ولا رسول ولا بشر .  
ولأن زجات النبي - صلى الله عليه وسلم - أمهات المؤمنين ، يعنى كأمهاتهم فى وجوب التوقير والتعظيم والاحترام .

والنبي - عليه السلام - مثل الوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه فى نفسه وأهله ؟ ... إن إيذاه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وإثم كبير لا يغفره الله لكم .  
يقول أبو السعود : " وفيه من تعظيمه تعالى لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإيجاب حرمة حياً وميتاً ما لا يخفى " وختم هذا التوجيه القرآني الكريم

بقوله تعالى : ﴿.....إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ [سورة الأحزاب : ٥٣].  
أخي المسلم ، אחتي المسلمة ، أرايتم هذه التوجيهات الراشدة ، والتي تأخذ بيد المسلمين إلى النجاة ، والنأي عن الشبهات ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومن نأى عنها استبرأ لدينه وعرضه ، وما حلت النكبات بالمسلمين وما نزلت المصائب إلا بعد تخليهم عن هذه الآداب القويمة وعن منهج الله الذي أدب الله به المسلمين الأول الذين اتبعوها فسادوا ، وملكوا أقطار الأرض ، وفتحوا البلدان قاصيها ودانيها ، وحطموا امبراطوريتي الفرس والروم ، حتى امتدت خارطة الدولة الإسلامية فكانت حدودها من الصين شرقاً إلى أن أطل الإسلام برأسه من فوق جبال " البرانس " فى فرنسا غرباً وبعد أن تخطى المسلمون عن هذه التوجيهات وتلك الآداب انتشرت الفوضى ، ودب الفساد فى الأرض ، وانتهكت الأعراض وديست الحرمات بالأقدام ، واغتصب العدو المتريص بنا

الدوائر والأعراض، والأراضى، مثل ما فعل ويفعل " فى العراق، وفلسطين المحتلة واليوسنة والهرسك، وجمهورية الشيشان وغيرها من بلدان المسلمين التى تقع تحت وطأة النصرانية الحاقدة، واليهودية الماكرة.

فواجب على المسلمين اليقظة والصحة وأن يفيقوا من نومهم ويستيقظوا من رقادهم، والتنبه من غفلتهم، لاستعادة الأرض، والحفاظ على العرض.

وإن يكون ذلك إلاً باتباع هذا الخلق القرآني الكريم، وما جاء فيه من توجيهات راشدة، ونصائح مفيدة، تعدد نبراسا ومصباحا يضيء للمؤمنين طريقهم الشاحب، وبذلك يسعد المؤمن فى دنياه، ويفوز بالجنة فى أخره والجزء الحسن يوم أن يلقاه.

فهلا يرفعوا المسلمون ويلتفتوا الى كلام ربهم وتوجيهات نبيهم وارشادات سنتهم. ولو أنهم اتبعوا ذلك ما شقوا، ولسعدوا فى حياتهم، ونعموا فى الآخرة بدار عرضها السموات والأرض أعدت للذين يعملون بتوجيهات القرآن الكريم وما حواه من آداب وأخلاق، واستمسك بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١).

وتلك آية قرآنية كريمة تتحدث عن الأخلاق، وترشد المسلم والمسلمة إلى اتخاذ الحيطة والحذر والوقاية حتى لا تقع المسلمة فيما حرم الله - عز وجل - فيقول سبحانه:

1- القرطبي ج ١٤، ص ٢٢٤، ص ٢٤٦.

□ التسهيل فى علوم التنزيل ج، ص ١٤٢.

□ زاد المسير لابن الجوزى ج ٦، ص ٤٢٢.

□ البحر المحيط ج ٧، ص ٢٤٧.

□ ابوالسعود ج ٤، ص ٢١٨.

□ البيضاوي ج ٢، ص ١٢٠.

□ الظلال ج ٥، ص ٢٨٧٧.

□ لطائف الارشادات ج ٣ ص ١٦٨ وما بعدها.

□ البحر المنيد لابن عجيبة ج ٤ ص ٤٥٣ وما بعدها.

□ حاشية الشهاب على البيضاوي ج ٧، ص ١٨٢ وما بعدها.

□ تفسير ابن كثير ج ٣، ص ٥٠٣ وما بعدها.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ ذَلِكَ

أَدَّى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾ [سورة الأحزاب: ٥٩].

والسر والسبب فى هذا التوجيه الرباني هو: أن إناسا من فساق أهل المدينة كانوا يخرجون ليلاً حين يختلط الظلام الى طريق المدينة فيتعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، وكان النسوة يخرجن لقاء حاجاتهن فى النخيل ، أو الغيصات ومفردها - غيضة - وهو الشجر الكثير الملتف وكان أولئك الفساق يتعرضون للإماء وكانوا إذا رأوا المرأة وعليها جلباب قال الفساق: " هذه حرة " فكفوا أذاهم عنها ، وإذا رأوا المرأة وليس عليها جلباب قالوا " هذه أمة فوثبوا عليها " ويقول مجاهد " تجلبين فيعلم إنهن حرائر ، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله " وكان الله غفوراً رحيماً " يعنى لما سلف وتقدم فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ومن ذلك الجهد المستمر فى تطهير البيئة العربية والتوجيه المطرد لإزالة جميع أسباب الفتنة والفوضى ، وحصرها فى نطاق ضيق حتى يسيطر الإسلام بتعاليمه التى تحفظ على المسلم خلقه وكرامته .

والمتأمل فى هذه الآية يرى أن الله - سبحانه وتعالى - يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر نساءه وبناته ، ونساء المؤمنين عامةً إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ، ورؤوسهن ، وجيوبهن - وهى فتحة الصدر من الثوب - بجلباب كاس فيميزهن هذا الزى ويجعلهن فى مأمن من معاينة الفساق .

فإن معرفتهن وحشمتهن معا لثقيان الخجل والحرص فى نفوس الذين كانوا يتتبعون النساء للعبث بهن .

يقول " أنس - رضي الله عنه : " مرت جارية متقنعة بسيدينا " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - فعلاها بالدرة ، وقال : يالكاع . أنت تشبهين بالحرائر فألق القناع .

وبمناسبة ذكر زوجاته - صلى الله عليه وسلم - فقد مات - عليه الصلاة والسلام - عن تسع زوجات ، خمس من قریش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة وأم سلمة ، وثلاث من سائر العرب وهن : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجورية وواحدة من بني هارون وهى : صفية - رضي الله عنهن .

وقيل دخل نسوة من بني تميم على عائشة رضي الله عنها عليهن ثياب رقاق فقالت عائشة: إن كذتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات، وإن كذتن غير مؤمنات فتمتعين. أى فتمتعن به .

ودخلت امرأة عريس على عائشة رضي الله عنها وعليها خمار قطني معصفر، فلما رأتها قالت: لم تؤمن بسورة " النور " امرأة تلبس هذا.

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ( نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤسهن مثل أسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ربهن ).

وقال عمر رضي الله عنه: ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت لها حاجة أن تخرج في أطمارها ، أو أطمار جارتها مستخفية، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها.

والأطمار جمع " طمر " بكسر الطاء وسكون الميم " وهو ثوب الخلق " والآن وبخاصة فى العصر الأنكد يجب الستروالتقنع فى حق الجميع " الحرائر والإماء " على السواء لكثرة الفتن التى يموج بها هذا العصر، والتيارات التى تهدف الى هدم الأخلاق لدى الشباب المسلم ويساعد ذلك على أمور عدة منها خواء ديني ، وضيق اقتصادي ، وإعلام هابط ، وغزو فكرى وثقافي من الخارج محاربةً لدين الله - عز وجل - وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - مع قول " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله " ، حتى قالت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر " وزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " لو عاش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل " .

ويقول ابن عجيبة فى إشارات الصوفية الى هذه المعاني : " ينبغى لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة ، وذلك بزيادة الصوف والتحفظ وقلة الخروج ، فإذا لزمهن الخرج ، فليخرجن فى لباس خشن بحيث لا يعرفن ، أو يخرجن ليلاً . وثبت أن زوجة الشيخ " أبو الحسن الشاذلي " - رضي الله عنه - لم تخرج من دارها إلا خرجتين خرجة حين رُفَّت إلى زوجها وخرجةً إلى المقابر - نفعنا الله ببركاتهم .

أما فى هذا العصر فالحق ، والحق نقول إن الإسلام لا يُمانع فى خروج المرأة كما انه لا يُمانع فى أن تعمل عملاً يناسب أنوثتها كصيدلانية مثلاً أو مدرسة ، أو طبيبة لأمراض النساء أو ممرضة ..... وهكذا .

وهذا أحرى بها لستر العورات ، ومنع الاختلاط ، واختلاس النظر من الأطباء الرجال ، أو إثارة الغرائز ، شريطة أن تخرج متحجبةً كما أمرها الله - عز وجل - فى القرآن الكريم ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فى سنته المطهرة وتلبس من الثياب ما لا يشف ولا يصف سترً للعورات .

ودراءً للمفاسد ، ودفعاً للشبهات ، وصوناً للأعراض ، وتحلياً بالأخلاق القرآنية الكريمة ، وقدوتنا جميعاً فى ذلك رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - وزجاته الطاهرات - رضي الله عنهن - .

أما أن يقول بعض المتنطعين والذين لا يفهمون حقيقة الإسلام ، وجوهر الدين ولا يفقهون شيئاً من أهداف الإسلام السامية ، وأعراضه الشامخة .

وسيره النيرة فى أن عمل المرأة المسلمة وخرجها للعمل " حرام " فهؤلاء لا يفقهون شيئاً فى فقه الإسلام ، وهم دعاة باطل وهدم لأصول الإسلام وقواعده السمحة الكريمة وقد عملت المرأة فى عهد رسول - صلى الله عليه وسلم - طبيبة وممرضة ، وسقاة فى الغزوات وكما أنها شاركت فى الأمور السياسية .

فروى أن الصحابية الجليلة " أم الربيع " -رضي الله عنها- تقول : " كنا فى غزوة أُحُدْ نُحَرِّزُ الْقَرِيبَ ، ونسقى العطشى ، ونضمد جراح الجرحى .

وحسبنا قول أمير الشعراء " احمد شوقي " :

هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ	يَنْقُضْ حَقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ
الْعِلْمِ كَمَا نَ شَرِيعَةٌ	لِنَسَائِهِ الْمُنْقَهَاتِ
رَضِنَ التِّجَارَةَ وَالسِّيَاسَةَ	وَالشُّؤْنَ الْآخِرِيَّاتِ

فلا يمانع الإسلام فى أن تعمل المرأة عملاً يناسب أئوتتها مع الحِشمة والوقار والاحترام والحجاب. (١)

## " التوقير والاحترام "

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الأخلاق، وترسم للمسلم الأدب الرفيع الذي أدب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله، وأمر رسول - صلى الله عليه وسلم - وهو ألا يرموا أمرا، أو يقضوا حكما في النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى يستشير؛ ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة فقال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة الحجرات: ١]

ثم انتقلت الى أدب آخر وهو خفض الصوت إذا تحدثوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - تعظيما لقدرة الشريف، واحتراما لمكانه السامي، فانه ليس كعامه الناس بل هو رسول الله، ومن واجب المؤمنين أن يتأدبوا معه في الخطاب مع التوقير والتعظيم والإجلال، فقال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ

بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ [سورة الحجرات: ٢]

والمعنى يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بكتاب الله وآمنتم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تقدموا أمرا، أو فعلا بين يدي الله ورسوله، فإذا عرضت مسألة في مجلسه - صلى الله عليه وسلم - لا يسبقونه بالجواب وإذا حضر طعام لا يبتدأون بالأكل قبله وإذا ذهبوا معه الى مكان لا يمشون أمامه .

يقول " ابن عباس - رضي الله عنهما - نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه - صلى الله عليه وسلم - ويقول " الضحاک " : " لا تفضلوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم ويقول " البيضاوي " المعنى لا تقطعوا أمرا قبل أن يُحكم به .

وقيل المراد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله .

{... وَأَتَقُوا اللَّهَ ...} فى التقديم أو مخالفة الحكم .

{ أَنْ اللَّهَ سَمِيعٌ } لأقوالكم . { عَلِيمٌ } بأفعالكم ، عليم بنياتكم وأحوالكم .

واظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والرعدة فى النفس ،

ثم أرشد الله – عزوجل – المؤمنين الى وجوب احترام ، وإجلال ، وتقدير النبي -صلى الله عليه وسلم – فقال لهم : " لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض فى الحديث ، وإذا كلمتم النبي – عليه الصلاة والسلام – فلا تخاطبوه باسمه ، أو كنيته كما يخاطب بعضكم بعضا ، فتقول " يا محمد " ، ولكن قولوا : " يا نبي الله " أو " يا رسول الله " إجلالاً لقدره ، ومراعاة الأدب معه ويقول المفسرون :

نزت هذه الآيات فى بعض الأعراب الجفاة ، الذين كانوا ينادون رسول الله باسمه ، ولا يعرفون توقير الرسول الكريم ، ثم حذرهم خشية أن تبطل أعمالهم من حيث لا يدرون ، ولا يشعرون ، فإن رفع الصوت ، والجهر بالكلام فى حضرته – صلى الله عليه وسلم – استخفافاً قد يؤدى إلى الكُفْرِ المحبط للعمل ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم حبط عملي، أنا من أهل النار، وجلس في أهله حزينا ففقدته رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له: تفقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما لك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار.

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما قال، فقال: "لا بل هو من أهل الجنة" (١) .

وفى رآية أخرى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما ترضى أن تُعِيش حَمِيداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟".

فقال: رضيت بِبُشرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت النبي صلى الله عليه وسلم (١).

ثم ذم الله تعالى الأعراب الجفاة ، الأجلاف ، قساسة الطبع ، غلاظ الأكباد والقلوب الذين ما كانوا يتأدبون فى ندائهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٤] .

يعنى يدعونك من وراء الحجرات ، وهى منازل أزواجه - صلى الله عليه وسلم - الطاهرات ، العفيفات ، المؤمنات ، الصادقات ، أكثرهم لا يعقلون حيث أن العقل يقتضى الأدب ، ومراعاة العظماء عند خطابهم خاصة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو صاحب المقام الأسمى ، والشرف الرفيع ، والحنوة عند الله - سبحانه وتعالى - .

يقول " البيضاوي " : " عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا من بني تميم وقتت الظهيرة وهو راقد فقالا : يا محمد اخرج إلينا .

ولو أن هؤلاء المنادين لم يزعجوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بمناداتهم هذه وصبروا حتى يخرج إليهم لكان ذلك الصبر خيراً لهم وأفضل عند الله وعند الناس ، وذلك لما فيه من مراعاة الأدب مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله هو الغفور لذنوب العباد الرحيم بالمؤمنين حيث اقتصر الله - عز وجل - على نصحهم وإرشادهم وتبصيرهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من الأدب ، والخلق خاصة فى مقام حضرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يُنزل العقاب بهم .

1- رواه ابن جرير الطبرى.

## " التثبيت من الخبر "

ومن الدعوة القرآنية الكريمة للأخلاق ، تحذيره ؛ - سبحانه وتعالى - من الاستماع للأخبار بغير تثبيت فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحجرات : ٦]  
 لئلا تصيبوا قوماً وأنتم جاهلون حقيقة الأمر فتصيروا نادمين أشد الندم على صنيعكم هذا ويروى أن " عمر بن عبد العزيز " - رحمه الله تعالى - وهو خامس خلفاء بني أمية .

جاءه رجل و قال له : إن فلانا يقول فى حقك كيت وكيت ، فقال " عمر ابن عبد العزيز - يا هذا أنت أحد ثلاثة أمور ، إن كنت صادقاً فيما جئتني به فأنت فاسق ، وإن كنت كاذباً فأنت حقير ، وإلا فإن هذا الشيء لم يحدث ، فعاهدني على التوبة ، فقال بعض الحاضرين فى مجلسه ، يا أمير المؤمنين ، كيف ؟ .

فقال " عمر بن عبد العزيز " - رحمه الله تعالى - إن كان صادقاً فهو فاسق لقول الله - عزوجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْهُ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ

فُضِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [سورة الحجرات : ٦]

ولم يبين ما نوع الخبر ، فإن كان صادقاً فهو فاسق ، وإن كان كاذباً فهو حقير لقوله - عزوجل :

﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَا فِي مَهِينٍ ﴾ ١٠ هَمَزَ مَشَاءَ بِنَيْبِيرِ ١١ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدِ أَثِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ١٠ : ١٢]

فسقط الرجل بين يدي " عمر بن عبد العزيز " واعترف بخطئه ، وعاهده على التوبة رأيت هذا الخلق ، وذلك الصنيع الاسلامى ، فلوان كل مسلم أو مسلمة فعل بالذين يوصلون الكلام الكاذب ، والأخبار الفاسدة التى تقطع صلة الأرحام وتقضى على

ما بين الناس من وشائج وأمشاج لصار المجتمع الاسلامى مجتمعاً نظيفاً خالياً من هذه الأمراض التى تفسد المجتمع ، وتفسح المجال للشر .

هذا هو خلق القرآن الكريم ، والذى يوشى ، ويوقع العداوة والبغضاء بين الناس ويكون سبباً فى قطع صلة الأرحام ، والإفساد بين المسلمين سيندم على فعله ، وستحسر على صنيعه ، واعلموا أيها المؤمنون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لو يسمع وشاياتكم ويطيعكم فى غالب ما تشيرين عليه من الأمور لهلكتم .

فأطيعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ولو أنه أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وإحراجكم ، ولكن الله تعالى بفضله نور بصائرهم فحباب الإيمان إلى نفوسكم وزينه فى قلوبكم حتى أصبح عندكم أغلي من كل شيء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِلِقَابِ رَبِّسَ الْأَسْمَاءِ الْمُسَوِّقَاتِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الحجرات : ١١]

ثم يناديهم بصفة الإيمان ، يا من آمنتم بالله وصدقتم بكتاب الله ورسوله لا يهزأ جماعة بجماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون المستهزئ به خيراً عند الله ، وأفضل من المستهزئ ورب أشعث أعبروا لو أقسم على الله لأبره ، ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا يعيب بعضكم بعضاً ولا يدعو بعضكم بعضاً بلقب السوء ، لأن المسلمين جميعاً كأنهم نفس واحدة فبئس أن يُسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً .

يقول الإمام " البيضاوي " وفى الآية دليل ، أو دلالة على أن التناييز فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح ، ومن لم يتب عن اللمز والتناييز فأولئك هم الظالمون لأنفسهم حيث إنهم سيتعرضون لعذاب الله وانتقامه ، ثم يحذر القرآن الكريم من الظن السيئ حيث إن بعض الظن إثم وذنب يستحق صاحبه العقوبة عليه .

رؤى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تظنن بكلمة خرجت من فيه أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معائبهم .  
وفى الحديث " يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته " (١) .

رؤى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه خرج يتفقد رعيته ذات مرة فسمع صوتاً غريباً فاقترب من الباب الذي صدر منه الصوت وإذا صاحب البيت ومعه اثنان يشربون الخمر فقفز أمير المؤمنين عن الحائط وأمسك به فقال له صاحب البيت إنني أخطأت في واحدة أما أنت فقد أخطأت بثلاث إن الله يقول " ولا تجسسوا " وأنت تنصت علينا ويقول " ولا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها " ولم يؤذن لك ويقول " وأتوا البيوت من أبوابها " وأنت قفزت عن الجدار . فسامحه أمير المؤمنين .

وفى روايةٍ أخرى للحادثة أخبرنا عبد الرزق عن معمر عن عبد الرحمن ابن عوف أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب ، فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمنونه ، حتى إذا دنوا منه ، إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن : أتدري بيت من هذا ؟ قال : قلت : لا .

قال : هو ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قال عبد الرحمن : أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه ، نهانا الله فقال : ( ولا تجسسوا ) ، فقد تجسسنا ، فانصرف عنهم عمر وتركهم (٢) .

أرأيت الحرية والديمقراطية الحقبة ، وليست المزيفة ، ومع من ؟

1 - أخرجه الحافظ ابو يعلى

2 - مصنف عبد الرازق .

إنه أمير المؤمنين ، ووزير الداخلية سيدنا " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - حيث إنه هو الذى أنشأ وزارة الداخلية ، وكانت تسمى " وزارة العسس " .  
وهو أيضاً الذى أنشأ " الدويات السيارة " لتفقد أحوال الشعب ومعالجة ما يعين من أخطاء ومخالفات ، وهو منشىء الدواوين ، واستمارة الرءاتب للموظفين . إنه الأمان والأمان الحقيقيين ، ولن يعيش الناس فى أمن وأمان حقيقيين إلا فى ظلالة دولة يحكمها الإسلام ، بأخلاق القرآن الكريم وسنة نبينا العظيم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم .  
ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ألا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته بما يكره ، وأورد تمثيلاً بشعاً ، شنيعاً لشناعة الغيبة وقبحها ، فقال الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الحجرات : ١٢] .

يعنى هل يجب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ؟

والمقصود لو قدم لك لحم أخيك المسلم الميت طعاماً هل تتوق نفسك إليه ؟ وهل تستطيع مضغه ؟ وهل تستطيع أن تلوكه بلسانك ؟ إن النفوس السوية تعاف ذلك وتأباه فكما تكرهون تناول لحم المسلم الميت طعاماً فاكروهوا الغيبة شرعاً وهو خلق قرآني وتوجيه رباني ، ونصح سماوي ، وبيان نبوي فكما يكره هذا من الواجب على المسلم كراهية الغيبة كراهية شديدة كما يجب الخوف من الله ، والحذر من عقابه ولا يكون ذلك إلا بامتنال أوامر ، واجتناب نواهيه ، إنه تعالى كثير التوبة ، عظيم الرحمة لمن اتقى الله وتاب إليه وأتاب ، وفيه حث على التوبة ، وترغيب بالمسارعة الى الندم ، والاعتزاف بالخطأ

حتى لا يقنط المسلم من ربح الله (١).

وفى هذه الآيات يبين الله - عزوجل - أخلاق المتقين الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وما رزقناهم ينفقون ، والذين لم تكتحل أعينهم بنوم ، ولم تهناً برقاد ، ولم تسعد فى دنياها بما سعد به المترفون بل حرموا أنفسهم فى سبيل مرضاة ربهم ، والسعادة الحقيقية فى جنات النعيم وما ذلك إلا لأنهم عرفوا حقيقة الدنيا وأيقنوا إنها فانية ، ومتاعها قليل ، والذي يحصل عليه الإنسان من هذا القليل قليل ، فالمرء فى حياته الدنيوية يحصل من القليل قليلاً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرِيكُم مِّنْ شَأْنِهِمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَانًا ﴾ [سورة النساء: ٤٩]

فهؤلاء الذين فطنوا إلى حقيقة الدنيا ، وإنها فانية فأدركوا أن السعادة الحققة هى سعادة الآخرة ، فيقول الله - عزوجل : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَّا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ رَبُّهُمْ كَأَوْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الذاريات: ١٥ : ١٦] . فهم فى بساتين وارفة الظلال وعيون جارئة ، راضين بما حباهم ربهم من الكرامة ، والنعيم والتمتع بالحوار العين اللآتي قال فى وصفهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " لو ابتسمت إحداهن لأضاءت ما بين المشرق والمغرب " يرى مخ ساقها ، وما استحقوا ذلك النعيم إلا لأنهم كانوا محسنين فى الدنيا فنالوا جزاءهم فى الآخرة .

أوهم فى عاجلهم فى جنات وصلهم وفى آجلهم فى جنات فضلهم ، درجات ونجاة ، واليوم قربات ومناجاة ، فما هو مؤجل حق أنفسهم ، وما هو معجل حق ربهم . هم

1 - مختصر بن كثير ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

□ البيضاوي ج ٣ ، ص ٣٦٥ ، ص ٣٧٥ .

□ حاشية البيضاوي .

□ أسباب النزول ، لسيوطي .

□ مختصر بن كثير ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، ص ٣٦٧ ، ص ٣٦٩ .

□ حاشية شيخ زادة على البيضاوي ج ٣ ، ص ٣٧٥ .

□ القرطبي ج ٩ ، ص ٦١٢٠ وما بعدها .

□ لطائف الإرشادات للشيرى ص ٤٣٧ و ما بعدها .

□ البحر العميق لابن عجيبة ج ٥ ، ص ٤١٧ و ما بعدها .

أخذين اليوم ما آتاهم ربهم ، يأخذون نصيبهم منه بيد الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربهم فى الجنة من فنون العطاء والرغد ومن كان اليوم أخذه بلا واسطة من حيث الإيمان والإتقان ، وملاحظة القسمة فى العطاء والحرمان ، كان إذا أخذه بلا واسطة فى الجنان عند اللقاء والعيان " إنهم كانوا قبل ذلك محسنين " كانوا ، ولكنهم باتوا فالعارف كائن بائن وهذا رأى " يحيى بن معاذ " (١) .

### والمعنى :

" أنه وإن بدا بين الناس يشاركهم ويباشرهم إلا أنه مشغول عنهم بمعرفته لا يشغل عنه طرفة عين " ولكنهم بعد ما أعدناهم حصلوا واستبانوا فهم كما فى الخبر " أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك فى الموتى ، واتق دعوة المظلوم " وكذلك رآه " الطبرانى " و " البيهقى " عن معاذ بلفظ " اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، واعمل كأنك تراه ، وأعد نفسك فى الموتى " فهؤلاء الذين استحقوا الجزاء وكانوا محسنين فى الدنيا بالعمل الصالح والعبادة وحرمان أنفسهم من التمتع بنعيم الدنيا ناظرين لنعيم الآخرة والنعيم الدائم ، ثم يذكر طرفاً من إحسانهم فيقول : " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون " فقد كانوا ينامون قليلاً ، ويصلون أكثر الليل ، يعنى ينامون أقله ويعبدون أكثره .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ

قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٦] .

يعنى خوفاً من عذابه وطمعاً فى رحمته . يقول الحسن " كابدوا قيام الليل لا ينامون منه إلا قليلاً " ويهجعون يعنى " ينامون " والهجوع هو النوم ليلاً والتهجاع النوم الخفيفة .

1 - الرسالة القيسرية ، ص ١٧٥ ، حلية الأولياء عن زيد بن الأرقم .

## يقول أبو قيس الأسلت :

قد خصيت البيضة رأبي فما  
ويقول الشاعر: عمر بن معدي كرب يتشوق أخته ، وكان قد أسرها الصمة  
أبو دريد بن الصمة :

أمن ريحانة الداعي السميع      يؤرقني وأصحابى مجوع  
فيقال : هجع ، بهجع هجوعاً ، وهبغ بالباء يهبغ ، هبوعا بالعين .

إذا نام . والمعنى : ينامون قليلاً من الليل ، ويصلون أكثره .  
يقول " عطاء " وهذا لما أمرت بقيام الليل . وكان الصحابي الجليل " أبو ذر  
الغفاري " - رضي الله عنه - يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة فقال

تعالى : ﴿ قُرْآنًا لَّيْلًا لِأَقْلِيلًا ۝۲ ۝۳ ﴾ وَأَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ۝۳ ﴿ [سورة المزمل ٢ : ٣]

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ ..... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة سبأ : ١٣]

﴿ وَإِلَّا لَسَعَارٌ لَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ١٨]

فهؤلاء القوم مع دعائهم وتهجدهم ينزون أنفسهم فى الأسحار منزلة العصاة  
فيستغفرون استغفاراً لقدرهم ، واحتقاراً لفعالهم ، وللليل للأحباب فى أنس المناجاة  
والعصاة فى طلب النجاة ، والسهر لهم فى ليايلهم دائماً إما لفرط أسف ، أو لشدة لهف  
وأما الاشتياق ، أو لفراق - كما قالوا :

كم ليلة فيك لا صباح لها

قد عصت العين بالدموع وقد

وأما لكمال أنس وطيب ربح - كما قالوا :

سقى الله عيشاً قصيراً مضى

لياليه تحكى انسداد لحاظ

فهم مع إحسانهم يعدون أنفسهم مذنبين ، وذلك يكثرين الاستغفار بالأسحار .  
ويقول أبوالسعود :

" أى هم مع قلة نومهم ، وكثرة تهمدهم يداومون على الاستغفار بالأسحار ،  
كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراء الجرائم ، وهذا مدح ثان للمحسنين .  
والمدح الثالث للمحسنين هو قوله - عز وجل:-

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴾ [سورة الذاريات : ١٩]

يعنى وفى أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل  
المحتاج ، وللمتعفف الذى لا يسأل لتعففه .

وفى الأرض دلائل واضحة على قدرة الله - عز وجل - ووحدانيته للمؤمنين بالله  
وعظمتهم والذين يعرفونه بصنعه .

يقول ابن كثير : " وفى الأرض من الآيات الدالة على عظمتهم خالقها ، وقدرته  
الباهرة ، مما فيها من صنوف النباتات والحيوانات والجبال والقفار ، والبحر ، والأنهار  
واختلاف السنة الناس وألوانهم وما بينهم من اتفاق فى العقول والفهوم والسعادة  
والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الخلق البديع .

ولهذا قال بعده مباشرة : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [سورة الذاريات : ٢١] .

يعنى وفى أنفسكم آيات وعبر من مبدأ خلقكم إلى منتهاه ، أفلا تبصرون قدرة  
الله فى خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث ؟ .

يقول ابن عباس - رضى الله عنها - يريد اختلاف الصور ، والألسنة والألوان  
والطبائع ، والسمع ، والبصر ، والعقل إلى غير ذلك من العجائب الموعدة فى ابن آدم .

ويقول " قتادة " - رضى الله عنه : من تفكر فى خلق نفسه عرف انه إذا خلق  
ولينت مفاصله للعبادة ويقول " القرطبي " - رحمه الله تعالى - يقول محمد بن سيرين  
وقتادة : المراد بالحق هنا الزكاة المفريضة .

وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحماً ، أو يقرى به ضيفاً أو يحمل به كلا أو يعنى به محرماً .

وقاله أيضا ابن عباس - رضى الله عنهما - لأن السورة مكية ، وفُرِضَت الزكاة بالمدينة .

والأقوى فى هذه الآية إن المراد بها الزكاة، لقوله تعالى فى "سورة المعارج " :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ﴿١٩﴾ [سورة الذاريات : ١٩].

والحق المعلوم هو " الزكاة " التى بين الشرع قدرها ووقتها .

أما غيرها فليس معلوماً لأنه غير مقدر ، ولا مجنس ، ولا مؤقت بوقت معلوم

وقال : المحرم هو من حرم المال .

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " :

" كما أن الأرضَ تحمل كلَّ شيءٍ فكذلك العارف يتحمل كلَّ أحد .

ومن استثقل أحداً أو تبرمَ برؤية أحدٍ فلغيبته عن الحقيقة ، ولطالعه الخلق

بعين التفرقة - وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة . ومن الآيات التى فى الأرض أنها

يُلْقَى عليها كلُّ قذارةٍ وقمامة - ومع ذلك تُنبتُ كلَّ زهرٍ ونورٍ ...

كذلك العارفين يتشرب كلَّ ما يُسقى من الجفاء ، ولا يترشح إلا بكلِّ خلقٍ عليّ

وشيمةٍ زكيةٍ .

يقول الإمام " الجنيد " الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها

إلا كل مريح " ، وقال أيضا - رحمه الله تعالى : " الصوفي كالأرض يطأها البرُّ والفاجر " .

ومن الآيات التى فى الأرض أن ما كان منها سبخاً يُترَك ولا يُعمرُ لأنه لا يحتمل

العمارة - كذلك الذى لا إيمان له بهذه الطريقة يُهمَل ، فمقابلته بهذه الصفة كإلقاء البذر

فى الأرض السبخة ، التى لا تصلح للزراعة والإنبات فإلقاء البذر فيها مضيعة للبذور

والوقت أيضا . ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ [سورة الذاريات : ٢١].

أى وفى أنفسكم أيضاً آيات ، فمنها وقاحتها فى همتها ، ووقاحتها فى صفاتها  
ومنها دعواها العريضة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها المريضة حين تزعم أن ذرّة  
أو بها أو منها .

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة أن ينظر الإنسان الى نفسه ، فإن النظر إلى النفس  
فيه آيات وعبر وعظات ، وأدعى إلى معرفة الخالق معرفة حقيقية فيكون ذلك طريقاً  
لمعرفة الله – سبحانه وتعالى – وتوحيده ، وتعظيمه وإجلاله – جل فى علاه – .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم  
القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي  
لاقربنكم ولابعدنهم) ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وفي أموالهم حق للسائل  
والمحرم)<sup>(١)</sup>.

---

1- القرطبي ج ٩ ، ص ٦٢٠٥ ، ص ٦٢٠٩ .

## " إجتنب كبائر الإثم "

ومن الأخلاق القرآنية والتي أمرنا بها الله - سبحانه و تعالى - فى كتابه العزيز قوله

تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [سورة النجم: ٣٢]

وفى الآية نعت للمحسنين الذين لا يرتكبون كبائر الإثم .

وكبائر الإثم هى " الشرك بالله ، وهو أكبر الآثام ، وأعظم الذنوب ، وقرأ الأعمشى ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى " كثير الإثم " على التوحيد ، وفسر، ابن عباس - رضى الله عنهما - " بالشرك " والفواحش " الزنا " ويقول " مقاتل " كبائر الإثم " كل ذنب ختم بالنار ، والفواحش هى : كل ذنب وجب فيه الحد واللمم هى الصغائر والتي لا يسلم من الوقوع فيها أحد إلا من عصمه الله - سبحانه و تعالى - وقد اختلف فى معنى " اللمم " فيقول أبو هريرة وابن عباس والشعبي " اللمم " كل ما دون الزنى .

ويذكر لنا " مقاتل بن سليمان " إن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى " نبهان التمار " ، كان له حانوتاً يبيع فيه تمرًا ، فجاءته امرأة تشتري منه تمرًا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبى و انصرفت فندم نبهان ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ! ما من شيء يصنع الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع، فقال : لعل زوجها غار ، أى من الغازين فى سبيل الله فنزلت هذه الآية آنفة الذكر .

وقد قال بهذا القول ، ابن مسعود ، وأبو داود ، وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق - رضى الله عنهم أجمعين - :

أن اللمم هو ما دون الوطء من القبلة والغمز ، والنظرة ، والمضاجعة يعنى النوم بجوار المرأة دون معاشرتها .

وروى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زِنَا الْعَيْنَيْنِ النُّظْرُ، وَزِنَا الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ، وَزِنَا الرَّجْلَيْنِ الْمَشْيُ، وَإِنَّمَا يَصْدُقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ الْفَرْجُ، فَإِن تَقَدَّمَ كَانَ زِنَا وَإِن تَأَخَّرَ كَانَ لِمَا.

وإنما يصدق ذلك ويكذبه "الفرج" يعنى "الزنا" فإذا ارتكب جريمة الزنا فيكون ما عداه هو "اللمم"، ولكن إن فعل الفعل فهو "زنا"، وَقَانَ اللَّهُ السُّوءَ .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه). يعنى إن فعل فهو "زنا" وإلا فلا .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مُدْرِكٌ لا محالة فالعينان زناهما النظر والأُذنان زناهما الاستماع واللسان زناهُ الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الحُطْيُ والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه).

وقال ابن عباس أيضاً: هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب.

قال: ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن يغفر الله يغفر جمًا وأبي عبد لك لا أُلما.

وقيل اللمم هو: أن تفعل الذنب ثم لا تعاوده .

وقال الشاعر :

إِن يَغْفِرَ اللهُ يَغْفِرَ جَمًّا      وَأَيُّ عِبْدٍ لَكَ لَا أُلْمَا

دليل هذا التأويل قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ... ﴾

[سورة آل عمران: ١٣٥]

ثم قال: ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم ... ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٦].

فضمن لهم المغفرة. كما قال عقيب : اللهم: (إن ربك واسع المغفرة) فعلى هذا التأويل يكون (إلا اللهم) استثناءً متصلًا وليس منقطعاً، قال عبد الله ابن عمر بن العاص: اللهم ما دون الشرك.

وقال سعيد ابن المسيب: هو ما ألم على القلب، أي خطر.

وقال محمد بن الحنفية - رضي الله عنه - : كل ما هممت به من خير أو شرف فهو لم.

ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: (إن للشيطان له والمملك له) .

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم ...﴾ [سورة آل عمران ١٣٦].

يعنى لمن تاب من ذنبه واستغفر.

وقال أبو ميسرة عمر بن شرحبيل وكان من أفاضل أصحاب ابن مسعود: رأيت في المنام كأنني دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكلاع وحوشب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضاً، فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنهما لقيبا الله فوجداه واسع المغفرة.

فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكلاع أعتق اثني عشر ألف بنت.

قال: والعرب تقول ما يأتينا لما ماء، أي في الحين بعد الحين.

وقال الشاعر:

بزئيب ألم قبل أن يرحل الركب      وقل إن تملينا فما ملك القلب

والله - سبحانه وتعالى - أعلم بأحوالكم منكم قبل أن يخلقكم ، ومن حين أن

خلق أباكم آدم من تراب ، ومن حين إن كنتم مستترين في أرحام أمهاتكم .

فهو - سبحانه وتعالى - يعلم التقى ، والشقي ، والمؤمن ، والكافر ، والبر والفاجر

علم ما تفعلون ، وإلى ماذا تصيرون . فلا تدخلوا أنفسكم على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا

لها بالكمال والتقى ، فان النفس خسيصة إذا مدحت اغترت وتكبرت .

ويقول " أبو حيان " : لا تنسبوا الى الطهارة عن المعاصي ، ولا تثنوا عليها ، فقد

علم الله منكم الزكي ، والتقى قبل إخراجكم من صلب آدم - عليه السلام - وقبل إخراجكم

من بطون أمهاتكم .

فألله - سبحانه وتعالى - عالم بمن أخلص العمل ، واتقى ربه في السر والعلن .

وقال بعضهم أن استثناء " اللّم " استثناء منقطع لأن اللّم ليس من كبائر الإثم

ولا من الفواحش فالاستثناء بمعنى الاستدراك .

ووجهه أن ما سمي باللّم ضرب من المعاصي المحذر منها في الدين ، فقد يظن

الناس أن النهي عنها يلحقها بكبائر الإثم فلذلك حق الاستدراك ، وفائدة هذا الاستدراك

عامة وخاصة : أما العامة فلكي لا يعامل المسلمون مرتكب شيء منها معاملة من يرتكب

الكبائر ، وأما الخاصة فرحمةً بالمسلمين الذين قد يرتكبونها فلا يقل ارتكابها من نشاط

طاعة المسلم ، ولا ينصرف اهتمامه إلى تجنب الكبائر . فهذا الاستدراك بشارة لهم ، وليس

المعنى أن الله رخص في إتيان اللّم .

وقد أخطأ وضاح اليمّين في قوله الناشئ عن سوء فهمه في كتاب الله وتطفله في

غير صناعته :

فما نولت حتى تضرعتُ عندها وأنبأتها ما رخص الله في اللّم

واللّم : الفعل الحرام الذي هو دون الكبائر والفواحش .

إن ربك واسع المغفرة ، حيث إنه يغفر الصغائر باجتنب الكبائر .

وهو عالم بأحوالكم حيث أنشأكم ويعرف ما كان ، وما يكون ، وما سيكون إلى

يوم الدين (١) .

1- روح المعاني لللالوسى ، ج ١٥ ، ص ٩٤ وما بعدها ، ط دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م .

□ التحريز والتنوير للشيخ محمد الطاهر عاشور ، ج ٢٧ ، ص ٤١٩ وما بعدها .

□ القرطبي ج ٩ ، ص ٦٢٧٥ وما بعدها .

□ تفسير أبو السعود ج ٥ ، ص ١٦٠ .

□ تفسير ابن الجوزى ، ج ٨ ، ص ٧٥ .

□ القرطبي ج ١٧ ، ص ١٠٦ .

□ مختصر ابن كثير ج ٣ ، ص ٤٠٣ .

□ تفسير البيضاوي ج ٤ ، ص ١٧٣ .

□ تفسير البحر المحيط ج ٨ ، ص ١٦٥ ، ص ١٥٥ .

□ لطائف الإشارات للإمام القشيري ج ٣ ، ص ٤٨٧ وما بعدها .

□ تفسير النسفى ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها .

## " المسارعة إلى العمل الصالح "

ومن الأخلاق القرآنية ما تجده فى " سورة الحديد " فى قوله تعالى :

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا

بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد: ٢١].

والمعنى " سارعوا بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم وقيل : سارعوا بالتوبة لأنها تؤدى إلى المغفرة ، وقيل المراد بالمسارعة التكبيرة الأولى مع الإمام وقيل " الصف الأول " ، وقيل سارعوا إلى جنة فسيحة عرضها مثل عرض السماوات والأرض مجتمعة .

يُشَبِّهُ اللَّهُ تعالى الجنة بعرض السماوات السبع والأرضين السبع ولا ريب أن طولها أكبر من عرضها ، فذكر العرض تنبيها على أن طولها أضعاف ذلك .

ويقول " البيضاوي " : " إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول " .

ويقول " ابن كيسان " عن جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ومن عادة العرب إنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله .

قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل  
وفى هذا دليل على أن الجنة مخلوقة وهورأى ابن القيم وكذلك الأشاعرة  
والسلف يرون أن الجنة والنار مخلوقتان الآن وانهما باقيتان .

ويقول " الألوسى " سابقوا إلى مغفرة من ربكم " يعنى سارعوا مسارعة السابقين  
لأقربانهم وادئاتهم وأمثالهم فى المضمار الى أسباب مغفرة عظيمة كائنة من ربكم  
- عز وجل - .

والكلام على سبيل " الاستعارة " أو " المجاز المرسل " واستعمال اللفظ فى لازم  
معناه وإشما لازم ذلك ، لأن اللازم أن يُبادر من يعمل ما يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة  
لا أن يعمل ، أو يتصف بذلك سابقاً على آخر .

وتقيل : المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر وتقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغريره؛ وخذاعه عن ذلك وهو كما ترى .  
والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، وعن عليّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية : كن أول داخل المسجد وآخر خارج ، وقال عبد الله : كونوا في أول صف القتال . وقال أنس : اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام وكل ذلك من باب التمثيل واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير .  
وعبر عن العناية والاهتمام بفعل السابقة لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يُسابق غيره؛ إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلي ولأن المسابقة كناية عن المنافسة، أي وتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأخريات والخوالف .

وتنكير { وَمَغْفِرَةٌ } لقصد تعظيمها وتكون الجملة مستقلة بنفسها ، وإلا فإن المغفرة سبق ذكرها في قوله : { وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ } فكان مقتضى الظاهر أن يقال : سابقوا إلى المغفرة ، أي أكثر؛ من أسبابها ووسائلها : فالمسابقة إلى المغفرة هي المسابقة في تحصيل أسبابها .  
والعَرْض : مستعمل في السعة وليس مقابل الطول لظهور أنه لا طائل في معنى ما يقابل الطول ، وهذا كقوله تعالى :

﴿..... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوعًا عَرِيضٍ ﴾ [سورة فصلت : ٥١].

وقول العُدِيل لما فر من وعيد الحجاج :-

ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط بأيدي الناعجات غريض

وتشبيهه عَرْض الجنة بعَرْض السماء والأرض ، أي مجموع عرضيهما لقصد تقريب المشبه بأقصى ما يتصوره الناس في الاتساع ، وليس المراد تحديد ذلك العرض ولا أن الجنة في السماء حتى يقال : فماذا بقي لكان جهنم .  
وهذا الأمر شامل لجميع المسابقات إلى أفعال البر الموجبة للمغفرة ونعيم الجنة وشامل للمسابقة الحقيقية مع المجازية على طريقة استعمال اللفظ في حقيقته ومجاز؛ وهي طريقة شائعة في القرآن إكثاراً للمعاني .

ومنه الحديث : « لو يعلم الناس ما فى الصف الأول لاستبقوا إليه أو استهموا إليه »  
 وليس فى الآية دليل على أن الجنة غير مخلوقة الآن إذ وجه الشبه فى قوله :

﴿...كَعْرَضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [سورة الحديد : ٢١]

هو السعة لا المقدار ولا على أن الجنة فى السماء الموجودة اليوم ولا عدمه وتقدم  
 من معنى هذه الآية قوله : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [سورة آل عمران : ١٣٣]

وظاهر قوله : { ...أُعِدَّتْ ... }

أن الله خلقها وأعدّها لأن ظاهر استعماله الفعل فى الزمان الماضى إن حصل  
 مصدره فيه ، فقد تمسك بهذا الظاهر الذين قالوا : إن الجنة مخلوقة الآن وأما الذين نفوا  
 ذلك فاستندوا إلى ظواهر أخرى .

وعلم من قوله : ﴿...أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ...﴾ [سورة الحديد : ٢١]

أن غيرهم لاحظ لهم فى الجنة لأن معنى إعداد شيء لشيء قصره عليه . وجمع  
 الرسل هنا يشمل كل أمة آمنوا بالله وبرسولهم الذى أرسله الله إليهم ، وليس يلزمها أن  
 تؤمن برسول أرسل إلى أمة أخرى ولم يدع غيرها إلى الإيمان به .

والإشارة فى ﴿...ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ...﴾ [سورة الحديد : ٢١] . إلى المذكور من المغفرة

والجنة .

﴿...ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

وفى ذلك رد على من يقول :

« إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ على الطاعات ، ويجب على الله إيصال العبد إليها » .

وهذا رأى المعتزلة الذين عدوا ذلك من مقتضيات العدل الإلهى . والصحيح انه لن  
 يدخل الجنة أحد بعمله .

لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-

" لن يدخل أحدكم عملة الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله .

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمةً . « (١) .

فالجنة فضل الله على العبد ، والفضل لا يكون واجباً .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَاطِئِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (١٣٤) [سورة آل عمران ١٣٣ : ١٣٤] .

فالجنة لا تُنال ولا تُدخَل إلا برحمة من الله تعالى وفضله .

فهو عطاء الله الواسع يتفضل به على من يشاء من عباده ، والله – عزوجل –

ذوالعطاء الواسع والإحسان الجليل .

هذا هو القرآن الكريم الذى يأمر بالأخلاق الحسنة ، خوفاً من الله – عزوجل –

وطمعاً فى رحمته ، فلوان المسلمين تخلقوا بأخلاق القرآن الكريم لقادوا وسادوا

ولأصبحوا ظاهرين على جميع الأمم ومنتصرين على كل الأعداء واستعادوا مجدهم

وعزتهم ، وسيادتهم ، وكيانهم ، واستعادوا أيضاً أراضيتهم المحتلة ومقدساتها المغتصبة

ودان لهم القاصي والداني :

بقوة حق لا بلىين قناته

ودانت لنا الدنيا نقود زمامها

بجد سيف لا يفل شبايه

بحولة إيمان وصوله مصحف

وذلك ديني فى ربيع حياته (٢)

أولئك أبائى وتاريخ أمتى

- 1 - صحيح البخاري و مسلم .
- 2 - صفوة التفسير للصابوني ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .
- التفسير الكبير ج ٢٩ ، ص ٢٣٤ .
- البحر المحيط ، ج ٨ ، ص ٢٢٥ .
- تفسير البيضاوي ، ج ٣ ، ص ٤٥٤ .
- التسهيل لعلم التنزيل ج ٤ ، ص ٩٩ .
- التحرير والتنوير ج ٢٧ ، ٢٨ ، ص ١٥٧ وما بعدها .
- تفسير القرطبي ج ، ص ٦٤٢٦ .
- لطائف الإشارات ج ٣ ، ص ٥٤٢ وما بعدها .
- روح المعاني للالوسى المجلد رقم ١٥ ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

## " البعد عن أسباب التباض "

ويعمى القرآن الكرىم فى تبصيره؛ للمؤمنين بالأخلاق القرآنية الكرىمة التى يجب أن يتحلى بها المؤمن ليكون قدوة لغيره، فى السلوك والعمل .

وقد امتدح الله - عز وجل - نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - فى القرآن

الكبرىم فخطابه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ٤ ﴾ [سورة القلم : ٤]

وفى هذه الآية و هى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ أَنْتَجِمْتُمْ فَلَا تَنْجُبُوا بِالْإِنْمِرِ وَالْعَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجِبُوا بِالْبِرِّ وَالنَّفْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩ ﴾ [سورة المجادلة : ٩].

فهذه الآية خطاب للمنافقين الذين يظهرن الإيمان وبيطنون النفاق والكفر

فعاملهم الله بما أظهره ، وناداهم بوصف الذين آمنوا كما قال - سبحانه وتعالى :

﴿ ..الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ... ﴾ [سورة المائدة : ٤١]

ومنه ما حكاه الله عن المشركين وهو قوله - عز وجل :

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦ ﴾ [سورة الحجر : ٦].

يعنى يا أيها الذى نزل عليه الذكر بزعمه ، ثم ينهم إلى تدارك حالهم وذلك يكون

بالإقلاع والنأي عن آثار النفاق على عادة القرآن الكرىم من تعقيب التخويف بالترغيب

والسرفى ذلك هو ان المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان وذلك يكون إذا لقوا الذين

آمنوا ، فإذا رجعوا الى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا فى بعض أحوالهم مقاربين الإيمان

بسبب مخالطتهم للمؤمنين ، ولذلك ضرب الله مثلا بالنور فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي

ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١٧].

ثم قال سبحانه :

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٢٠﴾ [سورة البقرة: ٢٠]

وهذا المناسب لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ أَنْتَجَبْتُمْ فَلَا تَتَّجِبُوا بِالْإِثْمِ وَالْأَعْدُونَ وَمَعَصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّوَى ۗ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٩﴾ [سورة المجادلة: ٩]

ويكون قوله تعالى : ﴿..... وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّوَى ۗ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة .

ويجوز أن تكون خطاباً للمؤمنين الخُصَّ بأن وجه الله الخطاب إليهم تعليماً لهم بما يحسن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذم تناجي المنافقين فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين تعريضاً بالمنافقين ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي ۖ وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ﴿١٥٦﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦].

ويكون المقصود من الكلام هو قوله:

﴿..... وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّوَى ۗ﴾ [سورة المجادلة: ٩] تعليماً للمؤمنين .

وقوله تعالى : "إِذْ أَنْتَجَبْتُمْ" يومئى إلى أنه لا ينبغي التناجي مطلقاً ولكنهم لما اعتادوا التناجي حُدروا من غوائله ومغياته ، وعواقبه الوخيمة ، وإنما كان ذلك منهم قبيحا وإنما عظيماً حَظَرَهُ ، وجليلا ذنبه لأنه تضمن إفساد ذات البين ، وخيرا الأمور ماعداه بإصلاح ذات البين .

﴿..... وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٩﴾ . يعنى : وخافوا الله بامتثالكم أوامر،

واجتنابكم لنواهيه الذى سيجمعكم ليوم لا ريب فيه ، ويجازى كلاً بعمله .

والنجوى إما تكون من تزيين الشيطان ليُحِزَن الذين آمنوا ، وإذا كانت المشاهدة غالبية ، والقلوب حاضرة ، والتوكل صحيح ، والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لمثل هذه الحالات ، وإنما هذا للضعفاء .

والآية أيضا فيها تسليية للمؤمنين ، وأنس لنفوسهم ويزيل به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين على اختلاف مذاهب نفوسهم ، إذا رأوا المتناجين فى عديد الظنون والتخوفات .

وذلك ليس بضار المؤمنين بإذن الله – سبحانه وتعالى – وعلى الله فليتوكل المؤمنون .  
يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى : " إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه " .

يعنى يسوله ويزين له فعل هذا القُبْح من الآثام والذنوب ، وليس هذا التناجى بضار للمؤمنين شيئا إلا بمشيئة الله وإرادته ، وعلى الله فليعتمد ويتوكل المؤمنون بالله ورسوله ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين ، فإن الله يعصمهم ويحفظهم من شرورهم ومكائدهم وفى الحديث : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إننا كنتم ثلاثة فلا يتناجىنَّ اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه".

أرأيت الخلق الذى يأمر به القرآن، ورسولنا خيرا الأنام- صلى الله عليه وسلم؟! .  
لا يتناجى ولا يتحدث اثنان ومعهما ثالث فإن ذلك يورث الحزن والهَم وذلك يجعله يظن بالمتحدثين السوء . فذلك خلق قرآني راق لا يبلغ شأنه ولا يفتن إلى مثل هذه الآداب غير القرآن الكريم وسنة سيدنا " محمد " - صلى الله عليه وسلم - .

وهى أيضا توجهات راشدة وفوائد نافعة فى الدنيا والآخرة .  
فمن اهتدى بهداهها ، واستمسك بها هداة الله إلى صراط مستقيم .  
ولكمال رحمته – سبحانه وتعالى – بهم وتماَم رأفته عليهم ، علمهم مراعاة حسن الأدب بينهم فيما كان من أمور العادة ، دون أحكام العبادة فى التفسح فى المجالس والنظام فى حال الزحمة والكثرة ، واعزز بقوم أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين ، وتحققهم بأركانه .

## " أسباب المحبة والمودة "

وذلك في قوله - عزوجل - :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ  
 أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة المجادلة: ١١]

لما نهى الله تعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر أمرهم بما  
 يصير سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وهو التوسع في المجالس ، وذلك بأن يوسع بعضهم لبعض  
 في المجالس والسبب في نزول هذه الآية الكريمة ما يريه لنا " مقاتل " قال : كان عليه  
 السلام يوم الجمعة في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين  
 والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر ، يعنى من الذين حضروا غزوة بدر وفيهم " قيس بن  
 ثابت " - رضي الله عنه - وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي - صلى الله عليه  
 وسلم - ينتظرون أن يوسع لهم فعرّف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يحملهم  
 على القيام وشق ذلك على الرسول ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم  
 يا فلان ، فلم يزل يقيم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه وشق ذلك على من أقيم من  
 مجلسه ، وعرفت الكراهية في وجوههم ، واستغل ذلك الموقف المنافقون وطعنوا في ذلك  
 وانتهزوا الفرصة للإيقاع بين المسلمين فقد حانت الفرصة لديهم ، وما كان لهؤلاء من الذين  
 يتركون مثل هذه الفرصة فاستغلها المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوماً  
 أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فنزلت هذه الآية من  
 الله - عزوجل - .

وفى ذلك توجيه قرآني وخلق أمرنا الله به ، لغرس المودة والمحبة بين المسلمين

ليعيشوا في سعادة يحب بعضهم بعض ، واحترّم بعضهم لبعض ، فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ  
 أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[سورة المجادلة: ١١]

وصدرت الآية بندا من الله تعالى وذلك بأكرم وصف ، وألطف عبارة يعنى  
 يا من صدقتم بالله ورسوله وتحليتكم وتربيتم بالإسلام إذا قيل لكم توسعوا فى المجالس  
 سواءً أكان مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو أى مجلس غير؛ فوسعوا وأفسحوا  
 يوسع لكم ربكم فى رحمته وجنته .

ويقول " مجاهد " كانوا يتنافسون فى مجلس النبي - صلى الله عليه وسلم -  
 فأمرؤا أن يفسح بعضهم لبعض .

ويقول " الخازن " أمر الله المؤمنين بالتواضع ، وأن يفسحوا فى المجلس لمن أراد  
 الجلوس عند النبي - صلى الله عليه وسلم - ليتساوى الناس فى الأخذ من حظهم من  
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى الحديث :-

" لا يقيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح  
 الله لكم " (١) .

ويقول الإمام " فخر الرازي " يفسح الله لكم مطلق فى كل ما يطلب الناس  
 الفسحة فيه من المكان ، والرزق والصدر ، والقبر ، والجنة ، والآية تدل على أن كل من وسع  
 على عباد الله أبواب الخير والراحة وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة . وفى الحديث "  
 لا يزل الله فى عون العبد ما زل العبد فى عون أخيه "

ويقول الإمام " ابن كثير " فى هذه الآية الكريمة حكم القيام للقيام ، فقال ابن  
 كثير - رحمه الله - وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم  
 من رخص فى ذلك محتجاً بحديث " قوموا إلى سيدكم " ومنهم من منع من ذلك محتجاً

بحديث " من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار " ، ومنهم من فصل فقال يجوز عند القدوم من سفرٍ ولحاكمٍ فى محل ولايته كما دل عليه قصة سعد بن معاذ فإنه لما استقدمه النبي حاكماً فى بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين " قوموا إلى سيدكم " وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته لذلك .

وفى الحديث المروي فى السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجلس حيث انتهى به المجلس ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس فكان الصحابة رضى الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم .

﴿...وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَأَشْرُوا...﴾

يعنى إذا قيل لكم أيها المؤمنون انهضوا من المجلس ، وقوموا لتوسعوا لغيركم فارتفعوا منه وقوموا .

ويقول ابن عباس - رضى الله عنهما - معناه " إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا " .  
يقول صاحب البحر المحيط :

" أمرئ' أولاً بالتفسيح فى المجلس ، ثم أمرئ' ثانياً : بامتثال الأمر فيه إذا أمرئ' وألاً يجدوا فى ذلك غصاصة .

ثم عقب بعد ذلك بقوله :

﴿...يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

يعنى : يرفع الله المؤمنين وذلك بامتثالهم أو أمرئ' ، واجتنابهم لنواهيهِ وامتثال أوامر رسول الله ، واجتناب نواهيهِ أيضاً - صلى الله عليه وسلم - والعلماء منهم خاصة أعلى المراتب ، وأرفع الدرجات فى الجنة .

يقول " ابن مسعود " - رضي الله عنه - : " مدح الله العلماء فى هذه الآية ، ثم قال " يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم ، فإن الله يقول : " يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات .

ويقول القرطبي : " بين فى هذه الآية : أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ، وليس بالسبق إلى صدر المجالس .

وفى الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب " .

وعنه - صلى الله عليه وسلم - : " يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ثم الشهداء " .

فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة ، وذلك بشهادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . " والله بما تعملون خبير " يعنى خير من يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ثم يمضى القرآن الكريم فى الحث على التحلى بالخلق الفاضل الكريم الذى يأمر به - عز وجل - فى كتابه الكريم وأيضاً سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - فيقول الله - عز وجل - للمؤمنين يا أيها المؤمنون الذين تَخَلَّقُوا بخلق القرآن إذا أردتم محادثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - سرّاً فقدموا قبلها صدقة تتصدقون بها على الفقراء .

يقول الأئوسى : " وفى هذا الأمر تعظيم لمقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق ويبين محب الدنيا ، ومحب الآخرة ، وفى تقديم الصدقات قبل مناجاته - صلى الله عليه وسلم - أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله ، وأظهر لذنوبكم ، فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله يسامحكم ، ويعفو عنكم ، لأنه لم يكلف بذلك إلا القادر منكم .

وهذا هو معنى قول الحق - سبحانه وتعالى :-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ

فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿سورة المجادلة: ١٢﴾

لما كان الإذن بالنجوى مقرّنا ببذل المال امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظهرت جواهر

الأخلاق ، ونقاوة الرجال .

وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾

إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فِيمَ حَفِظْتُمْ تَبَلَّغُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴿سورة محمد: ٣٦﴾ .

## " الإستعداد للدّار الآخرة "

ويمضى القرآن الكريم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والحث على الأخلاق الكريمة والتحلي بها ليسعد المؤمن فى دنياه ، ويكون من الفائزين الناجين فى أخراه ، كما أن الأخلاق سبب رقى المجتمع ونهضته وإحراز، قصب السبق وقد صدق أمير القوافي حين قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا  
فبالأخلاق تنهض الأمم ، وتبنى الحضارات ، وتقود وتسود وتعود غيرها من الدول والأمم ، ويصبح لها السيادة والريادة ويدين لها بالسمع والطاعة القاصي والداني .  
يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ [سورة الحشر: ١٨]

يعنى خافوا الله ، واحذروا عقابه ، وذلك لا يكون إلا بامتثال أوامر، واجتناب نواهيه ، ولتنظر كل نفس ما قدمت من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم وسمى يوم القيامة "عدا" لقرب مجيئه، وفى بعض المواطن القرآنية يعبر عنه بالماضي كقوله تعالى :

﴿ أَفَءَأْمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ [سورة النحل: ١]

فعبر هنا بالماضي ومقتضى السياق والواقع أن يقول "يأتى أمر الله " ، أو "سيأتى أمر الله " والسرفى ذلك أنه لما كان يوم القيامة واقعاً لا محالة فعبر بالماضي عن المضارع لتحقق الوقوع .

ويقول- عز وجل- " وما أمر الساعة إلا كلمح البصر " والتذكير فيه للتعظيم والتفخيم والتهويل ، وكرر لفظ " التقوى " للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التى هى وصية الله تعالى للأولين والآخرين .

وعلامه من نظر لعد أن يحسن مراعاة يومه ، ولا يكون كذلك إلا إذا فكر فيما عمله فى أمسه ، والناس فى هذا على أقسام : مفكر فى أمسه : ما الذى قسم له فى الأذن؟ وآخر مفكر فى غده : ما الذى يلقاه؟

وثالث مستقل بوقته فيما يلزمه فى هذا الوقت فهو مستبصر عن شاهده موصول بربه ، متدرج فى مذكوره ، لا يتطلع لماضيه ، ولا لمستقبله ، فتوقيت الوقت يشغله عن وقته ويقول الإمام " القرطبي " فى معنى هذه الآية:

" اتقوا الله فى أوامره ونواهيه وأداء فرائضه ، واجتناب معاصيه ، وابتغوا ما قدمت ليوم القيامة " والعرب تكنى عن المستقبل " بالغد " وقيل : ذكر الغد تنبيهاً على أن الساعة قريبة، كما قال الشاعر: " وإن غدا للناظرين قريب " .

ويقول الحسن وقتادة - رحمة الله تعالى عليهما - " قرب الساعة حتى جعلها كغد " ولا ريب فى أن كل آت قريب ، والموت لا محالة آت وينظر أيضاً فيما قدمه من خير أو شر، وكرر لفظه " واتقوا الله " فالتقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب ، والثانية هى : اتقاء المعاصي فى المستقبل .

﴿... وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣]

يقول سعيد بن الجبير : يعنى خير وعليم بما يكون منكم ، ويقول " الألوسى " : التقوى الأولى فى أداء الواجبات ، كما يشعربه ما بعده من الأمر بالعمل وهذا فى ترك المحارم كما يؤذن به الوعيد بقوله سبحانه :

﴿... وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٣]

أى من المعاصي وهذا الوجه الثانى أرجح لفضل التأسيس على التأكيد . والتقوى شاملة لترك ما يؤثم ، وترك كل محرم . وتنكير " نفس " فى الآية يفيد العموم فى سياق

الأمر أى لتنظر كل نفس . فان الأمر والدعاء ونحوهما مثل الشرط تكون النكرة فى سياقها مثل ما هى فى سياق النفي كقوله تعالى :

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ...﴾ [سورة التوبة: ٦]

وكقول " الحبري " : يأهل ذا المعنى وقيتم ضراً ، يعنى وقيتم كل ضر .

وأطلق على الزمن المستقبل مجازاً لقريب الزمن المستقبل من البعيد ملازمة اقترب الزمن لمفهوم الغد ، لأن الغد هو اليوم الموالى لليوم الذى فيه المتكلم، فهو اقرب أزمنة المستقبل كما قال الشاعر " قراد بن أجدع " .

فإن يكُ صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب

وهذا المجاز شائع فى كلام العرب فى لفظ " غد " وأخواته .

قال زهير بن أبى سلمى :

واعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنى عن علم ما فى غد عمّ

وهو يريد باليوم الزمن الحاضر، وبالأمس الزمن الماضى ، وبالغد الزمن المستقبل.

وجاءت لفظة " غد " نكرة؛ للتعظيم والتهويل ، يعنى الغد لا يعرف لكنه

ولا حقيقته. واللأم فى قوله " لغد " لام العلة يعنى ما قدمته لأجل يوم القيامة ومن اجل الانتفاع به .

ثم يقول الله - عز وجل :- ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [سورة الحشر: ٢٠]

يقصد لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء ، لا يتساوى أهل النار وأهل

الجنة فى الفضل والثواب ، والأجر والنعيم . فأصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية

فى دار الخلد والنعيم ، وذلك هو الفوز العظيم والذى لا يعدله فوز ولا نجاح حيث إنه النجاح والفوز الحقيقي .

ويقول صاحب " اللطائف " لا يستوي أهل الغفلة مع أهل الوصلة ، وأصل كل آفة هى نسيان الله عزوجل ولولا النسيان ما حصل العصيان ، والذى نسى أمر نفسه فهو الذى لا يجتهد فى تحصيل توبته ، ويسوق فيما يلزمه به الوقت من طاعته .

ويقول الإمام " القرطبي " :- " لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فى الفضل والرتبة ، وأصحاب الجنة هم الفائزون المكرمون المقربون الناجون من النار وصدق الله عزوجل حين قال :-

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [سورة السجدة : ١٨] .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٨] .

وقوله تعالى :- ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ..... ﴾ [سورة المائدة : ١٠٠] .

هذا هو القرآن الكريم الذى يتحدث عن الأخلاق ، ويأمر بها كي يُسعد المؤمن فى حياته ، ويفوز بالنجاة من النار فى آخرته ، وذلك هو الفوز العظيم . إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . اللهم وفقنا للعمل الصالح لنفوز برضوان الله تعالى ، والسعادة فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالعمل الذى يرضيك ، وفى الآخرة الفوز بالجنة بفضلك ورحمتك ..... آمين (١) .

والقرآن الكريم وهو كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهُداه وسبيله ، به قسم الله ظهر كل شيطان مرید ، وأذل به كل جبار عنيد ، هو الذى أحنى رأس الوليد ، وألان قلب عمر - رضى الله عنه - هو الذى سمعته الجن فهتفت قائلة :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَتَأْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٢) [سورة الجن : ١ : ٢] .

هذا الكتاب العظيم الذى يوجه بل يأمر بحسن الخلق ، والتواضع ، ولين الجانب حتى مع أعداء الإسلام وخصومه ، إنه أى القرآن الكريم توجيهات ربانية وإرشادات إلهية ، وقوانين سماوية ، وإنه لتنزيل من حكيم حميد ، وإنه لا ريب فيه .

فانظر إلى هذا التوجيه الخلقى العظيم الذى تنتظمه هذه الآية وهى قوله - سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الممتحنة : ٩] .

فقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بشدة العداوة مع أعدائهم على الوجه الذى يفعلونه ، وأما من كان فىهم نا خلق حسن ، أو كان منه للمسلمين وجه نعيم أوقف ، فقد أمرهم بالملاينة معه . والمؤلفة قلوبهم خير شاهد لهذه الجملة ، فان الله يحب الرفق فى جميع الأمور . قال - صلى الله عليه وسلم :-

" ان الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف " .

ويقول القرطبي : " إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين " يعنى جاهدوكم على الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وهم عتاة مكة ، وعاونوا على إخراجكم وهم مشركوا أهل مكة " إن تيرهم " ومن يتخذهم أولياءً وأنصاراً وأحاباً فأولئك هم الظالمون .

فنهى عن مصادقة ومودة من يناصر المسلمين العداوة ، ويضمر لهم البغضاء ويكمن لهم الشر والسوء وخاصة من يقاتل المسلمين ويحارب دينهم ويطارده عقيدتهم فى كل مكان على النحو الذى نراه فى هذا العصر من محاربة للإسلام وأهله فوق كل أرض كالذى نراه فى " البوسنة والهرسك " حيث المجازر والمذابح للمسلمين على أيدي " الصرب " وكالتى نراها فى " جمهورية الشيشان " فى روسيا الملحدة ، وكذلك فى " العراق " وما حدث من احتلال للأرض وهتك للعرض ، مثل الذى رأيناه وسمعناه فى وسائل الإعلام المسموعة والمقرءة ، والرئية لما حدث فى سجن " أبوغريب " فى العراق حيث كانت مسلمة تصرخ وتقول " فى بطني أمريكى " وأخرى تعلن لقد عاشرنى أكثر من سبعة عشر رجلاً حتى حدث لديها " تهتك فى الرحم " ، ومثل الذى شاهدناه ، ورأيناه رأى العين فى حرب " قطاع غزة " من قتل للرجال ، وذبج للأطفال والنساء ، وهدم للمنازل ، وتجريف للأراضى الزراعية فهواهلك للحرت والنسل ، والله لا يحب الفساد .

كل هذه الجرائم التى ترتكب على مرأى ومسمع من الدول التى تدعى الحرية والديمقراطية والتقدم ، والتمدن ، والحضارة ، والغريب والعجيب أنها تصف الإسلام بـ "الإرهاب" من الارهابى ؟!!! .

الذى يدافع عن حقه ، ويذود عن عرضه ، ودينه وماله ، يقال له : أنت ارهابى .  
والذى يغتصب الأرض والعرض ويهلك الحرث والنسل متحضر ومتمدن .!!! هذا ما تفعله "أمريكا ، وإسرائيل ، وفرنسا وناجتلر" أنه الكفر البواح ، وقد صدق فقهاء الإسلام حيث قالوا " الكفر كله ملةٌ واحدةٌ " أجل إن الكفر كله ملة واحدة ، وطريقة متحدة مهما اختلف لِبُوسِهِ ، وتباينت أفعنته ، وتعددت أُرديته ، واختلفت أسماؤه .

ولكن الله عزوجل سينصر دينه ، والذى يدافع عنه ، فمهما ادلهم الليل واعترت الظلام ، وطال الزمن سينجلي الكرب ، ويذهب الليل ، وينتصر الحق ويعلى الله دينه وناصره ، فهو حق :

الحق منتصر فى كل آونة وحافر البئر غبنا واقع فيها  
ثم تمضى الآية فتقول : ومن يصادق أعداء الله ، ويتخذهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، وذلك بتعريضها للعذاب من الله سبحانه وتعالى فذلك توجيه رباني وإرشاد الهى ، ونصح قرآني ، وخلق اسلامى لوان المسلمون اتبعوه لاهتدوا ، ونجحوا فى حياتهم جميعا ، ويسعدوا فى دنياهم ، وفى أخرهم . (١)

1 - التفسير الكبير للرازي ، ج ٢٩ ، ص ٣٤ .

□ تفسير البحر المحيط ج ٨ ، ص ٢٥٦ .

□ النهر المعاد من البحر المحيط .

□ الدر المنيف من البحر المحيط .

□ روح المعاني للالوسى ج ١٥ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

□ تفسير القرطبي ج ٩ ، ص ٦٥٣٨ وما بعدها طدار الريان للتراث ، القاهرة .

□ لطائف الإشارات للإمام القشيري ج ٣ ، ص ٥٧٢ وما بعدها ، ط مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣ .

## " الوفاء بالوعد "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى وجهنا إليها القرآن الكريم ، وحثنا نحن المسلمين على التخلق بها على النحو الذى يريده لنا الله سبحانه وتعالى " الوفاء بالوعد " وعدم الخلف فقال تعالى :-

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الصف ٢ : ٣].

والمعنى بأيتها الذين صدقوا الله ورسوله لما تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه ؟ . وهو استفهام إنكارى توبيخى .

يقول "ابن كثير" - رحمه الله تعالى - الآية إنكار على من يعد وعدا أو يقول قولاً لا يفي به ، ولهذا استدل بالآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى انه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا .  
واحتجوا أيضاً من السنة فيما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال " آية المنافق ثلاث :

إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان " وفى الصحيح أيضاً " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها " فذكر منهن : إخلاف الوعد .

ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى :-

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة غافر : ٣٥].

وقد روى الإمام " أحمد " و " أبو داود " عن عبد الله بن عامر بن ربيع قال :  
" أتانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب فقالت أمى تعالى يا عبد الله أعطيك . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- :-



ثم لما كان " يوم أحد " لم يثبتوا فنزلت هذه الآية فى العتاب .  
ويقول " محمد بن كعب " - رضي الله عنه . لما أخيرا الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - بثواب شهداء بدر قال بعض الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - اللهم اشهد لئن لقينا قتالاً لنفرغن فيه وسعنا ، ولكنهم فرؤا يوم أحد فغيرهم الله بذلك .  
فخلف الوعد قبيح ، ومع الله - عز وجل - أقبح ويقال إظهار التجلد من غير شهود مواضع الفقر إلى الحق فى كل نفس يؤذن بالبقاء عما حصل بالدعوى أى بدعوى النفس .

تسول له نفسه أن له فى الأمر شيئاً ، وأن تدبيره هو الذى مكن له .

والله يحب التبتري من الحول والقوة .

وأم يتوعد - سبحانه وتعالى - زنة بمثل ما على هذا حين قال " كبر مقنا عند الله أن تقولوا ما لا نفعلون " .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم " أتيت ليلة أُسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت - يعنى نمت وطالت - قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون " (١) .

ونظيره هذه الآية فى القرآن الكريم ما يحكيه لنا الإمام " القرطبي " فيقول :

قال المؤمنون يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال الى الله لسارعنا إليها فنزلت

هذه الآية وهى قوله سبحانه :-

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَارِعِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ الِّمِ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الصف : ١٠]

فمكثوا زمناً طويلاً يقولون : لو نعلم ما هى لاشتريناها بالأموال والأنفس

والأهلين ، فدلهم الله تعالى بقوله - عز وجل - :

١- أخرجه ابى نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة .



## " التجارة مع الله "

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن الأخلاق فيقول :-

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

[سورة الصف ١٠: ١٢]

يقول "مقاتل" :

نزلت هذه الآية فالصحابي الجليل "عثمان بن مظعون" - رضي الله عنه - وذلك أنه قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو أدت لي فطلقت خولته وترهبت واختصيت وحرمت اللحم ، ولا أنام بليل أبدا ، ولا أفطر بنهار أبدا فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ان من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام ، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله ، وخصاء أمتي الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتي أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني .

فقال " عثمان بن مظعون " - رضي الله عنه -

والله لو ددت بأني أتى التجارة أحب إلى الله فأتجر فيها ، فنزلت هذه الآية

وهو قوله سبحانه وتعالى :-

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ  
جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

[سورة الصف ١٠: ١٢]

ويقول الله - عز وجل - في ذات المعنى " :-

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونَ وَيُقْنَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [سورة التوبة : ١١١].

وهذا خطاب لجميع المؤمنين .

وقيل هو خطاب لأهل الكتاب ، والصواب والراجح أنه خطاب للمؤمنين.

والدليل على ذلك قوله - سبحانه وتعالى - :

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ [سورة التوبة : ١١١]

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " ، فالآية خاصة بالفئة المؤمنة ، وليس أهل الكتاب لأنهم غير مؤمنين ، وقوله تعالى " تنجيكم من عذاب أليم " يعنى تخلصكم من عذاب أليم ومؤم وشديد وهو من "الإلناء" وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوية " تنجيكم من عذاب أليم " وهو من "التنجية" ثم يبين الحق سبحانه وتعالى التجارة المربحة فيقول هى " تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم " يعنى أن التجارة المربحة هى الإيمان بالله ، ثم الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم الجهاد فى سبيل الله .

وناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان من شأنه أن يزغ المؤمن عن أن يخالف فعله قوله فى الوعد بالخير .

وفيه كناية عن تحذيرهم من الوقوع فى مثل ما فعلوه " يوم أحد " بطريقة الزمر وكناية عن اللوم على ما فعلوه " يوم أحد " بطريقة التلويح . ويبين الله

- عز وجل - كيفية الجهاد فيقول إن الجهاد يكون بالنفس والمال . وقدم ذكر المال على النفس علماً بأن النفس هي أعظم شيء لدى الإنسان فمتى ذهبت نفسه مات وفارق الحياة الدنيا لأن المال هو الذى يبدأ به فى الإنفاق ، وهذا العمل ونلك الفعل خَيْرٌ وأفضل وأحسن وأعظم من المال والنفس إن كنتم تعلمون ما فى ذلك من الثواب والأجر الجزيل عند الله يوم القيامة ، حيث يكون الجزاء جنات عرضها السماوات والأرض أعدت لهؤلاء وأمثالهم من العاملين الخاشعين المتقين .

ولذلك قال بعدها مخبراً - سبحانه وتعالى - ومعينا الجزاء الذى سيلقونه فى الدار الآخرة ، فقال عز من قائل:- ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة الصف: ١٢]

وقوله تعالى " تؤمنون " هى فى معنى آمنوا عند " المبرد " و" الزجاج " ولذلك جاء قوله تعالى " يَغْفِرْ لَكُمْ " مجزئاً على أنه جواب الأمر ويقول القرآن " يَغْفِرْ لَكُمْ " جواب الاستفهام .

وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى وذلك أن يكون " تؤمنون بالله " وتجاهدون عطف بيان على قوله :-

" هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم " كأن التجارة لم يدر ما هى فبينت بالإيمان ، والجهاد ، فهى هما فى المعنى فكأنه قال هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم والمعنى هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ، فما أجمل ولا أعظم من التجارة مع الله سبحانه وتعالى حيث ان الربح مضمون ، والثمن مريح ،

والجزء عادل ، أنها الفردوس الأعلى لمن تاجر مع الله مبتغياً رضوانه عزوجل .(١)

---

1- تفسير الكشاف للزمخشري ، ج ٤ ، ص ٣١٤ .

- ❑ التفسير الكبير ج ٢٩ ، ص ٣١١ .
- ❑ تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٥٧ ، وما بعدها .
- ❑ لطائف الإشارات ج ٣ ، ص ٥٧٥ وما بعدها .
- ❑ تفسير القرطبي ج ٩ ، ص ٦٥٥٦ ، وما بعدها .
- ❑ تفسير النسفى .
- ❑ روح المعاني للالوسى ج ١٥ ، ص ١٢٢ ، وما بعدها .
- ❑ تفسير الجلالين للسيوطي .
- ❑ تفسير التحرير والتنوير ج ٢٨ ، ص ١٧٤ ، وما بعدها .

## " الانفاق فى سبيل الله "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى وجهنا إليها ربنا - عزوجل - الإنفاق فى سبيل الله . حيث أن الإسلام دين يقوم على البذل والعطاء ، ولذلك نرى الإسلام يحض على السخاء والمسارة إلى دواعي الإحسان ، فيقول الله - عزوجل -

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٤] .

يعنى الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله إبتغاء مرضاته - سبحانه - فى جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وفى جميع الأحوال من سر وجهر ، وهؤلاء المُنْفِقُونَ لهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم فى الدنيا .

ويقول الإمام الشهيد " السيد قطب " فى معنى هذه الآية :

" هكنا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال ، كما تشمل جميع الأوقات وجميع الحالات ، وفى مقابل ذلك لهم أجرهم من مضاعفة المال ، وبركة العمر وجزء الآخرة ورضوان الله ، ولا خوف عليهم من أى مخوف ، ولا حزن من أى محزن فى الدنيا والآخرة سواء .

ويقول " ابن كثير " وهذا مدح الله تعالى للمُنْفِقِينَ فى سبيله وإبتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار وفى جميع الأحوال من سر وجهار حتى أن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك ، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال " لسعد بن أبى وقاص " - رضى الله عنه- حين عادته مريضاً عام الفتح ، وفى رِأْيَةِ أُخْرَى عام حجة الوداع " وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا إزددت بها درجةً ورفعةً ، حتى ما تجعل فى امرأتك " يعنى فى فم زجك .

وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن المسلم إذا انفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة " والمراد انه يحسبها لوجه الله ، وإبتغاء مرضاته .

وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إن هذه الآية نزلت فى أصحاب الخيل وهو الذين يعلفون الخيل فى سبيل الله ، وقيل كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهما ليلاً ودرهماً نهاراً ، ودرهماً سراً ، ودرهماً علانية فنزلت هذه الآية :-

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْتِلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾

[سورة البقرة : ٢٧٤].

هؤلاء لهم أجرهم عند ربهم على ما فعلوا من الإنفاق فى الطاعات ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شرك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى " (١) .

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن القرآن الكريم النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على القرابة ، والمساكين ، فإن المبذر متلاف سفيه ، يضيع فى شهواته الخاصة زينة ماله ، فماذا يبقى بعد للحقوق الواجبة ، والعون المفروض ؟ .  
يقول الله تعالى :-

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٧٤﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٦ : ٢٧] .

ويقول الإمام الشيخ المرحوم ، والمغفور له - بإذن الله - أستاذنا المفكر الاسلامى الكبير " الشيخ محمد الغزالي " :

ومضى السياق فى الإيذاء بالاحتاجين ، وصيانة وجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور من الجود إذا كان لا يملك إيتاءهم ما يبتغون .

قال تعالى :-

﴿وَمَا تَعْرَضْنَ عَنْهُمْ أِبَتَّغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾

[سورة الإسراء: ٢٨]

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مضطربة ، وحرية على الكنزة والبخل موصولة متقدمة<sup>(١)</sup> ، وفى الحديث " السخي قريب من الله ، قريب من الناس قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل " <sup>(٢)</sup> فلن يوجد فى الدنيا نظام يستغنى فيه البشر عن التعاون ، ويقول الله تعالى :-

﴿... وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: ٢]

ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - " والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه " ولو كان المال فى وفرته يتبع ما أوتى الناس من مواهب معنوية لاكتنز البعض الكثير ، وعاش البعض على الكفاف ، فتلك سنن الخليقة ، ويتسرب الشقاء إلى الناس عندما يعيشون متقاطعين لا يعرفون إلا أنفسهم ، وتحقيق شهواتها ، والجري وراء ملذاتها ولكن الله جعل الإنفاق تحيصاً للأغنياء ويمحص به الإيمان ، ويوزع به الفضل .

ومن سنن الحياة الدنيا أنك ترى الجهال أصحاب ثروات طائلة ، وأهل العلم

والفضل يعيشون على الكفاف ، يقول الشاعر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه      وكم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا  
هذا الذي ترك الأوهام حائرة      وحير العالم التحريير زنديقا

1- خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي ص ١٠٩ ط نهضة مصر .

2- رواه الترمذى .

وقال آخر :

تموت الأسدُ فى الغابات جوعاً      ولحم الضأن تأكله الكلاب  
ويقول الإمام " على بن أبى طالب " - رضى الله عنه :-

رضينا قسمة الجبار فينا      لنا علم وللجهال مال (١)  
ويقول الحق فى هذا المعنى :-

﴿...وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝﴾

[سورة الفرقان :٢٠]

ولن تنجح أمة إلا إذا وتَّقتُ الصلوات بين أبنائها ، ولا يكون ذلك إلا بتحقيق العدل بين أبناء المجتمع.

ويقول تعالى ﴿هَاتِئِنَّ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ۗ

وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۗ...﴾ [سورة محمد :٣٨] .

إن الفقر معسرة إذا ألصقت بالإنسان أخرجته ، وهبطت به دون المكانة التي كتب الله للبشر وقد تحرمه الكرامة التي فضل الله بها الإنسان عل سائر الخلق قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾ [سورة الإسراء :٧٠] .

هذه هي الأخلاق في القرآن الكريم التي تدعو إلى السخاء ، واليذل والعتاء فلو أن أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - إستمسكوا بهذه الأخلاق القرآنية لسعدوا في الدنيا والآخرة ، وأسعدوا غيرهم من الفقراء ، والمساكين ، والمعوزين والمحتاجين (٢) .

ويقول بعض الحكماء : إذا اصطنعت المعروف فاسترته ، وإذا اصطنع إليك

فانشره ، وانشدوا :

يخفى صنائعه والله ينشرها      إن الجميل إذا أخفيته ظهر

ويقرر القرآن الكريم انه من الأخلاق التى وجهنا إليها الله - عز وجل - فى محكم كتابه الكريم أنه أمرنا ألا نضيع أمور ديننا الحنيف بسبب الأموال والأولاد بل من الواجب إثارة حق الله على جميع الحقوق ، فإذا ما فعلنا ذلك كفانا الله أمور الدنيا والأولاد ، فإذا كنت لله كان الله لك .

وحق الله هو ما ألزمتك القيام به وحققك ضمن لك القيام به ، فأشتغل بما كلفت لا بما كفيت .

وذلك هو معنى قول الله - عز وجل :-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَأْمُولُكُمْ وَلَا ءَأَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة المنافقون : ٩] .

وذلك لما ذكر قبائح المنافقين ، نهى المؤمنين عن التشبه بهم فى الاعتزاز بالأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة والزكاة والحج ، كما شغلت المنافقين .

يقول " أبوحيان " يعنى لا تشغلكم أموالكم بالسعي فى نمائها ، والتلذذ بجمعها ولا أولادكم بالسرور بهم ، وبالنظر فى مصالحهم عن ذكر الله ، وهو عام فى الصلاة والتسبيح والتحميد ، وسائر الطاعات .

والذى شغلته الدنيا عن طاعة الله وعبادته ، فأولئك هم الكاملون فى الخسران حيث أنهم آثروا الحقير الفاني ، على العظيم الباقي ، وفضلوا العاجل على الآجل ، ثم يوجههم القرآن الكريم الى السخاء ، والبذل والعطاء وذلك بالإنفاق فى سبيل الله ومرضاته ، فقال تعالى " وأنفقوا مما رزقناكم " يعنى أنفقوا من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال من قبل أن يحل الموت بالإنسان ويصبح فى حالة الإحتضار فيقول عند تيقنه بالموت يارب هلا أمهلتنى ، وأخرت موتى إلى زمن قليل فاصدق وأحسن عملي ، وأصبح صالحا تقيا .

يقول " ابن كثيرالدمشقي ". رحمه الله تعالى :-

" كل مفرط يندم عند الإحتضار ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات .

ولكن هيهات هيهات ولن يمهل الله أحدا مهما كان ، وأياً كان إذا انتهى أجله

ولن يزيده فى عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أن يجىء الأجل

وقد فرط ولم يستعد للقاء ربه ، والله سبحانه عالم ومطلع على أعمالكم من خير أو شر

ومجازيكم عليها .

ويقول " صاحب اللطائف " :-

( يعنى لا تغتروا بسلامة أوقاتكم ، وترقبوا بغتات آجالكم ، وتأهبوا لما بين أيديكم

من الرحيل ، ولا تعرجوا فى أوطان التسويف ) .

ويقول " الألوسى " :-

والمضارع فى الموضوعين كما قال المبرد وجماعة . خبر بمعنى الأمر . أى آمنوا

وجاهدوا ، والمراد تثبتون وتداومون على الإيمان ، أو تجمعون بين الإيمان والجهاد . هكذا

يكون الإيمان مقرئاً بالجهاد فى سبيل الله حتى يسعد المؤمن فى دنياه وأخراه . وذلك

بالإيمان والجهاد فى سبيل الله . (١)

وهذه آية من كتاب الله الكريم نزلت بسبب قوم كافرين تأخروا عن الهجرة من

دار الشرك الى دار الإسلام ، وذلك بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك ، فأنزل - سبحانه

وتعالى - هذه الآية القرآنية الكريمة فقال تعالى :-

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ

شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ [سورة التغابن : ١٦]

وتقيل : " فاتقوا الله ما استطعتم "

يعنى فيما تطوع به من نافلة أو صدقة .

فإنه لما نزل قوله سبحانه: ﴿.. اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ..﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]

إشدد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقبيهم ، وتقرحت جباههم ، فأَنْزَلَ اللهُ - سبحانه وتعالى - تلك الآية تخفيفاً عنهم فقال تعالى :-

" فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ " ويفهم من هذه الآية أن المكر، على المعصية غير مؤاخذ بها ، لأنه لا يستطيع إتقاءها " وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا " يعنى اسمعوا ما توعظون به ، وأطيعوا فيما تؤمرون به ، وتنهون عنه .

ويقول " مقاتل " - رحمه الله تعالى - ( اسمعوا ) أى أصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله ، وهو الأصل فى السماع ، وفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأطيعوا رسول الله فيما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ويقول " قتادة " - رضى الله عنه - عليهما بويح النبي - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة .

وتقيل ( اسمعوا ) يعنى أقبلوا ما تسمعون ، وعبر عنه بالسمع لأنه فائدته . وقد تغلغل فى هذه الآية " الحجاج بن يوسف الثقفي " :-

حين تلاها وقصرها على الخليفة " عبد الملك بن مروان " فقال " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا " هى " لعبد الملك بن مروان " أمين الله وخليفته وليس فيها مثنوية والله لو أمرت رجلاً أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحل دمه . وكذب " الحجاج بن يوسف الثقفي " فى تأويل هذه الآية ، حيث إن الآية لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . ثم لأولى الأمر من بعده .

والدليل على هذا قوله سبحانه :-

﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ [سورة النساء: ٥٩] .

( وأنفقوا ) قيل هى الزكاة ، ويقول " ابن عباس " - رضى الله عنهما - هو نفقة

الرجل فى النفل .



وقوله - سبحانه وتعالى: -

﴿... وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن: ١٧].

والحليم هو الذى لا يعجل .

والمراد فى قوله تعالى: " فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " أبدلوا أيها المؤمنون فى طاعة الله جهدكم وطاقتكم ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون .

وهذا يكون فى المأمورات وفضائل الأعمال يأتى منها الإنسان بقدر طاعته .

وأما فى المحظورات فلا بد من إجتنابها ، ودليل ذلك ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه " (٣) .

واسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرين به وتنهون عنه ، ومن سلم من البخل والطمع والجشع الذى تأمر به النفس ، وهى الأمانة بالسوء فقد فاز برضوان الله ومغفرته .

﴿... وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

" والله شكور حليم " يعنى شاكر للمحسن إحسانه ، حليم بالعباد حيث لا يعاملهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم وهو تعالى العالم بما غاب وحضر ، لا تخفى عليه خافية ، " يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور " ، " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفى بالليل وبارى بالنهار " . العزيز الحكيم الغالب فى ملكه ، الحكيم فى صنعه

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " ما دتم فى الجملة مستطيعين ويتوجه عليكم التطبيق فأنقوا الله ، والتقوى عن شهود التقوى بعد ألا يكون تقصير فى التقوى غاية التقوى " ومن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ " وحتى ترتفع الأخطار عن قلبه ويتحرر من رق المكونات " فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " [سورة الحشر: ٩]

هذا هو خلق القرآن الكريم وصدقت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر الصديق " - رضى الله عنه - وزيج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سُئِلت عن أحوال النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرآن يمشى فوق الأرض .

يعنى كان حُلُقه القرآن يأتربما أمر؛ الله به ، وينتهي عما نهاه الله عنه والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو الأمر له هو خطاب لأُمَّته ، وأمر لأُمَّته . نسأل الله أن يرزقنا التخلق بأخلاق القرآن الكريم ، وإلهتداءً بهدى نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

فهلا تخلق المسلمون بأخلاق القرآن الكريم ليسعدوا فى دنياهم ، ويفوزوا فى آخرهم وبذلك نسود ، ونعود ، ونرتقى ، وننتقدم ، ونتمدنا ، وتعود الدنيا بأسرها فما أوجدنا - نحن المسلمين - الى التخلق بأخلاق القرآن الكريم والإستمسك بسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - خاصة فى هذا العصر الأندك الذى يموج بالتيارات الوافدة ، والأعاصير الهوج التى تهب بالسموم من الشرق والغرب (١) .

1 - تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٨٠ .

- تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٣٧٧ .
- تغيير القرطبي ج ١ ، ص ٦٦٢٣ وما بعدها . ط دار الريان للتراث . القاهرة .
- لطائف الاشارات ج ١ ، ص ٥٩٦ وما بعدها .
- التحريز والتنوير ج ٢٨ ، ص ٢٨٧ وما بعدها .
- التفسير الكبير للفخر الرازى .
- فى ظلال القرآن الكريم لامام الشهيد سيد قطب .
- البحر المديد لابن عجيبة .

## " آداب إسلامية "

وهذه آية من آيات الكتاب العزيز تتحدث عن الأخلاق ، وتأمربها وهذه الآية من "سورة الطلاق" وسميت بذلك لأن السورة تحدثت فى أول آية منها عن الطلاق وعمما يجب إتباعه مع النساء فى هذه الحالة فقال تعالى :-

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

[سورة الطلاق: ١].

والخطاب فى الآية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد خوطب النبي - صلى الله عليه وسلم - بلفظة الجماعة تعظيماً له وتفخيماً .

وفى سنن ابن ماجة عن سعيد بن الجبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهم أجمعين- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طلق " حفصة " - رضى الله عنها - فأنت أهلها ، فأذن الله تعالى على النبي - عليه السلام - قوله تعالى :-

"يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ... [سورة الطلاق: ١]."

وقيل له- عليه السلام . راجعها فإنها قوامه صوامه ، وهى من أزواجك فى الجنة . ويرى أنه نزل فى خرجها إلى أهلها قوله تعالى :

"لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ" [سورة الطلاق: ١].

ويرى فى سبب نزل هذه الآية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب على حفصة لما أسرَّ إليها حديثاً فأظهرته للسيدة " عائشة " - رضى الله عنها - فطلقها تطليقة واحدة فنزلت الآية .

وقيل : أن الآية نزلت فى " سيدنا عبد الله بن عمر " - رضى الله عنهما - حيث أنه طلق امرأته وهى حائض تطليقه واحدة فنزلت الآية ، فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم - لسيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- مر إبنك فليراجعها .

وكان عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - طلق امرأته تطليقة واحدة فأمره رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ان يراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ، ثم تطهر فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها . فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء .

وقيل أن رجالاً فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ، ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وعتبة بن غزوان - رضى الله عنهم أجمعين - فنزلت هذه الآية الكريمة فيهم ، والصواب والراجح لدينا أن الآية خطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمراد بالخطاب أمته .

وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لأطلقه بقوله " يأياها النبي " وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعاً له قال " يأياها الرسول " والدليل على صحة هذا القول نزول العدة فى " أسماء بنت يزيد السكن الأنصارية " - رضى الله عنها . فقد طلقت على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن للمطلقة عدة ، فأُنزل الله تعالى حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق فكانت أسماء بنت يزيد السكن الأنصارية - رضى الله عنها - أول من أنزل فيها العدة للطلاق .

وقيل أن المراد به نداء النبي - صلى الله عليه وسلم - تعظيماً ، ثم ابتداءً فقال " إذا طلقتم النساء " مثل قوله تعالى :-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة المائدة : ٩٠]

فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم ، ثم افتتح فقال :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة المائدة: ٩٠].

ويروى لنا " الثعلبي " من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما- قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن من أبغض الحلال الى الله تعالى الطلاق "

وعن عليّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " تزوجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش " .

وعن أبى موسى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تطلقوا النساء إلاّ من ربيّة ، فإن الله - عزوجل - لا يحب الذواقين ولا الذواقات " .

رأه الطبراني فى المعجم الأوسط عن أبى موسى الاشعريّ والبخارى مسنده وفيه إنقطاع " عبادة بن نسيّ " لم يلحق أبى موسى الاشعريّ ، ومعنى الذواقين والذواقات هو ان يكون الرجل كثير النكاح سريع الطلاق وهو بمنزلة الذائق للطعام غير الأكل منه أو الذى يَمِلُ ما فى يده ، وينظر الى ما فى يد غيره . والذواقين جمع ذائق .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق " وعن " معاذ بن جبل " - رضى الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا معاذ : " ما خلق الله شيئاً على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ولا خلق الله شيئاً على وجه الأرض أبغض من الطلاق " .

إذا قال الرجل لمملوكه يعنى " العبد " أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا إستثناء له .

وإذا قال الرجل لإمرأته أنت طالق إن شاء الله ، فله إستثناءه ، ولا طلاق عليه .

وقوله تعالى : " لِعِدَّتِهِنَّ " يقتضى أنهن الآتى دخلن بهن الأزواج ، لأن غير

المدخول بهن خرجن بقوله تعالى :-

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسِرَّهِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٩]

فمن طلق فى طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السنة ، وإن طلقها حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .

ويقول : " سعيد بن المسيب -" رحمه الله تعالى -

( لا يقع الطلاق فى الحيض لأنه خلاف السنة ، وهو الصحيح والصواب ) .

وعن سيدنا عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : طلقت إمرأتى وهى حائض ، فذكر ذلك عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتعَيَّظَ رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

فقال : ليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التى طلقها فيها ، فان بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يمسه ، فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله سبحانه .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : طلاق السنة أن يطلقها فى كل طهرٍ تطليقة فإذا كان آخر ذلك ، فتلك هى العدة التى أمر الله تعالى بها . وقوله تعالى "وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ" يعنى أحفظوها أى أحفظوا الوقت الذى وقع فيه الطلاق . وقوله تعالى "وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ" يعنى لا تعصوه ، "لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ" [سورة الطلاق: ١] . يعنى لا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضى عدتهن .

"وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ" [سورة الطلاق: ١] .

يعنى ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضى عدتهن إلا إذا قارفت المطلقة عملاً قبيحاً مثل " الزنا " فإنها عند ارتكابها جريمة الزنا تخرج لإقامة الحد عليها .

فقد نهى الله - سبحانه وتعالى- أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذى طلقها فيه ، ونهاها هى أن تخرج باختيارها ، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ، ولا أن تغيب عنه نهائياً إلا لضرورة التصرف ، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة .

" وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ " [سورة الطلاق : ١].

يعنى ومن يخرج عن هذه الأحكام ، ويتجاوزها إلى غيرها ، ولا يَأْتَمِرُ بِهَا فقد ظلم نفسه وذلك بتعريضها للعقاب ، واضربها حيث أنه فَوَّتَ عَلَى نَفْسِهِ إِكْرَامَ زَوْجَتِهِ إِلَيْهِ .

وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يُطَلِّقُ لغير العدة .

" لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا " [سورة الطلاق : ١].

يعنى لا تعرف أيها السامع ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر فلعل الله يقلب قلبه من بغضها الى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها فيجعله راعياً فيها يعنى فى (زوجته) بعدما كان كارهاً لها .

قال ابن عباس- رضي الله عنهما - يريد الندم على طلاقها ، والمحبة لرجعتها فى العدة .

" فَإِذَا بَلَغَنَّ أَجَلَهُنَّ " يعنى فإذا شارفن على إنقضاء العدة ، وقارين ذلك فراجعوهن الى عصمة النكاح مع الإحسان فى صحبتهن كما أمر الله - عزوجل- أو لتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن .

يقول المفسرون الإمساك بالمعروف هو الإحسان فى العشرة ، وتوفية النفقة من غير قصد المضارة فى الرجعة لتطول عليها العدة ، والفراق بالمعروف هو أداء الصداق والمتعة عند الطلاق ، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها .

ويقول ابن كثير - رحمه الله تعالى - " العدة هى الطهر، والقرء هو الحيضة " ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وتسموه الى طلاق سنة، وطلاق بدعة " فطلاق السنة " هو ان يطلقها طاهرةً من غير جماع أو حاملاً قد استبان حملها يعنى وضعت فطهارة الحامل أو إنقضاء عدتها هو وضعها لما فى بطنها من حمل .

لأن المقصود من ذلك كله هو ( إستبراء الرحم ) " والطلاق البدعى " هو ان يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، فجماعه لها لا يدرى بعد ذلك أحملت أم لا . وطلاق ثالث لا هو سنة ولا هو بدعة ( طلاق الصغيرة والأيسة وغير المدخول بها ) .

ويقول صاحب " لطائف الإشارات " والطلاق وإن كان فراقاً لم يجعله الله - سبحانه وتعالى - محظوراً وإن كان من وجّه مكرهاً ، وللطلاق وجوه مرتبطة بأوقات خاصة ، والعدة وإن كانت فى الشريعة لتخصيص ماء الزوج " محافظتاً على الأنساب لئلا يدخل على ماء الزوج ماء آخر .

فالغالب والأقوى فى معناها أنها للوفاء للصحة الماضية فى وصلة النكاح والإشارة فى الآيات التالية الى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقل من الوفاء مدة لهذه الصغيرة التى لم تحض ، وهذه الأيسة من الحيض ، وتلك التى إنقطع حيضها والحبلى حتى تلد .

كل ذلك مراعاة للحرمة وعدة الوفاة تشهد على هذه الجملة فى كونها أطول لان حرمة الميث أعظم وكل ما ذكر مراعاة للوفاء والحرمة .

يقول " ابن القيم " : " إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية وموافقة عدوه " إبليس " حيث يفرح بافترق الزوجين وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج والزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ، وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهرةً من غير جماع ، طلقة واحدة ، ثم يتركها حتى

تنقضي عدتها ، فان زالت أسباب الخلاف ، وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها وجعل العدة ثلاثة قُرُوءَ ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذى شرعه وأذن فيه .

هذه أخلاق القرآن الكريم التى أمرنا الله - سبحانه وتعالى- وهى دستور المسلمين الذى ينظم جميع حياتهم حتى يكونوا من السعداء فى الدنيا والآخرة وما شقى المسلمون وعمهم الظلم ، وغشيتهم النصب والنكد والتعب ، وتكدرت حياتهم إلا بعد أن تخلوا عن هذه الأخلاق ، بل حاربوها ، وناصروها العدا ، وفى الحقيقة ما حاربوا إلا أنفسهم وجلبوا عليها التعب ، وانكدرت معيشتهم وإنحلت أخلاقهم ، وعمت الفوضى مجتمعاتهم وعاشوا حيارى لا يرقبون فرجاً ولا يجدون حلاً لهذه الأزمت ، ونسوا ، أو تناسوا أن الحل بين أيديهم وهو كتاب ربهم ، ودستور الذى أنزله لينظم حياتهم ، ويفصل فيما بينهم ويعالج ما يعن من مشكلات وأدواء . وذلك هو القرآن الكريم الذى يأمرنا بالأخلاق ، وحسن الخلق فى كل معاملتنا فهو البلسم الشافى ، والدواء الناجح ، والقانون الإلهى الذى " لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " (١) .

إنها أى الأخلاق السعادة كلها ، والعزاجم . ثم نرى القرآن الكريم يوجهنا إلى الأخلاق الكريمة التى تُسعد الإنسان فى حياته وفى آخرته ، وطرق ذلك التوبة النصوح فيقول الله - عز وجل - " توبوا الى الله توبةً نصوحاً " .

وهى أن يقلع عن الذنب مع عدم العودة إليه ، وقد سُئِلَ سيدنا " عمر بن الخطاب " - رضي الله عنه - عن التوبة النصوح فقال : هى أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

**ويقول العلماء التوبة النصوح هى التى جمعت ثلاثة شروط :**

أولها الإقلاع عن الذنب .

وثانيها الندم على ما حدث .

وثالثها هو العزم على عدم العودة إليه ، وإن كان الحق لأدنى زيد شرطاً .  
 رابعها وهو رد المظالم إلى أصحابها ، وذلك لعل الله يرحمكم بحوذنوبكم فضلاً  
 من الله سبحانه وتكرماً ، ويدخلكم فى الآخرة حداثق وبساتين ناضرة تجرى من تحت  
 قصورها أنهار الجنة ، يوم لا يفضح الله النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنين  
 أمام الكافرين ، بل يعزهم ويكرمهم . وفيه تعريض عمّن أخزهم الله تعالى من أهل الكتاب  
 والفسوق ، ونور وآلاء المؤمنين يضئ لهم على الصراط ويسطع أمامهم وخلفهم ، وعن  
 إيمانهم وشمائلهم مثل إضاءة القمر فى جنح الظلام ويعون الله تعالى قائلين : يا ربنا  
 أكمل علينا هذا النور ، وأدّمه لنا ، ولا تتركنا نتخبط فى الظلمات ، وغيايب الظلم .  
 يقول "عبد الله بن عباس" - رضي الله تعالى عنهما - هذا دعاء المؤمنين حيث  
 أطفأ الله نور المنافقين .

يدعون ربهم إشفاقاً حتى يصلوا الى الجنة ، ثم يدعون ربهم كذلك .  
 ربنا إمسح عنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا إنك أنت القادر على  
 كل شيء ، والغفار لكل ذنب ، والرحيم بكل عاصٍ فأنت القهار القادر على كل شيء من  
 المغفرة ، والعقاب ، والرحمة ، والعذاب .

قال - سبحانه وتعالى - ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [سورة البرج: ١٦].  
 ويقول صاحب "لطائف الإشارات" "إن التوبة النصوح هى التى لا يعقبها نقص  
 وقيل هى التى تراها فى نفسك ، ولا ترى نجاتك بها ، وإنما تراها بربك وقيل : هى التى  
 تجد مرارتها فى قلبك عند ذكرها وتذكرك ما وقعت فيه من خطأ مثل ما كنت تجد الراحة  
 لنفسك فعلها . وذلك يوم لا يخزى الله نبيه . صلى الله عليه وسلم . بترك شفاعته ، والذين  
 آمنوا معه بافتضاحهم بعدما قبل فيهم شفاعته وعبر بقوله : "نورهم يسعى بين أيديهم  
 وبأيامانهم" عن أن الأيمان من جميع جهاتهم .

ويقال " بأيمانهم " هو كتاب نجاتهم ، وأراد نور توحيدهم ، ونور معرفتهم ونور إيمانهم ، وما يخصهم الله به من الأنوار فى ذلك اليوم .

" يقولون ربنا أقم لنا نورنا " يعنى يستديمون الإبتهال والتضرع فى السؤل .

ويسأل سائل " أبى بن كعب " - رضى الله عنه - قائلاً: فما التوبة النصوح ؟ فقال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عن ذلك فقال : " هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدا " ويقول صاحب " التحرير والتنوير " أمر الله المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا ما ارتكبوها ، وتلبسوا بها ، لأن ذلك من إصلاح أنفسهم ، وذلك بعد أن أمرنا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يكون سبباً فى دخول النار ، لأن إنتقاء النار يتحقق بإجتناّب ما يرمى بهم فيها ، وقد يزهلون عما فرط من سيئاتهم ، فهدوا إلى سبيل التوبة التى يحون بها ما فرط من سيئاتهم .

هذا هو خلق القرآن الكريم الذى يرشدنا إلى ما يكون سبباً فى سعادتنا فى الدار

الآخرة ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء ٨٨ : ٨٩].

ويحذرنا من إجترح السيئات ، ثم يرشدنا إلى العلاج الناجح ، والبلسم الشافي وهو التوبة من الذنوب شريطة ألا يعود إلى ما ارتكب من ذنوب ، وإجترح من سيئات واقتترف من أخطاء ليغفر الله لنا ذنوبنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ويدخلنا الجنة مع الأبرار ولا يخزنا يوم القيامة أمام الكافرين والمنافقين الفجار هذه أخلاق القرآن الكريم ، والذى لا ريب فيه هدى للمتقين .

وفى الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم- سُئِلَ كيف تعرف أمتك يوم

القيامة من بين الأمم ؟

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " إنهم يأتون غراً محجلين من آثار

الوضوء " يعنى تسطح جباههم ، وأيديهم بالنور من آثار الطهور ، فيعرفهم بذلك رسول

اللّه-صلى الله عليه وسلم-إنها بشرى عظيمة لأتباع محمد - صلى الله عليه وسلم -  
وللمحافظين على الصلاة ، والمسبغين للوضوء ، والمداومين على الطهارة ، فهنيئاً لأمته سيدنا  
محمد- صلى الله عليه وسلم - وهى أمة الوضوء ، والركوع ، والسجود ، والظهر والطهارة  
والعفة ، والعفاف ، والزكاة ، والصدقة ، والصوم، والحج ، والعمرة ، والإنفاق والجهاد  
فى سبيل الله بالمال والنفس (١) .

---

1 - تفسير الخازن ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

## " حسن الخلق من الإيمان "

ومن الأخلاق التى حث عليها القرآن الكريم ، وأمر المسلمين أن يتحلوا بها ويتخذوها نبراً يضىء أمامهم الطريق ، وتكون منجاة لهم فى الدار الآخرة ، فكل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذب نفسه ، وحسن خلقه ، واستغنى عن المجاهدة فلا يد من إيضاح علاقة حسن الخلق ، فان حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق ، وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه العزيز ، وهى بجملتها شرة حسن الخلق ، وسوء الخلق ، قال الله تعالى :- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: ١-٣].

إلى قوله تعالى :- ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠-١١].

وقال - عز وجل - : ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ ...﴾ [سورة التوبة: ١١٢].

إلى قوله تعالى : " وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ "

وقال - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءِآيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال: ١-٤].

يقول - عز وجل - : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان: ٦٣].

إلى آخر السورة التى تحكى صفات المؤمنين الذين تخلقوا بخلق القرآن الكريم وقد وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المؤمن بصفات كثيرة ، وأشار بجمعها إلى محاسن الأخلاق ، فقال - صلى الله عليه وسلم - " المؤمن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " .

وقد أخرجه الشيخان من حديث أنس :-

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "

وقال - عليه السلام -

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " (١)

وقال - صلى الله عليه وسلم -

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره " (٢)

وقال - صلى الله عليه وسلم -

" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " (٣)

فصفات المؤمنين هى حسن الخلق ، فقال- صلى الله عليه وسلم -

" لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً " (٤)

وقال- صلى الله عليه وسلم -

" لا يحل لمؤمن أن يثير إلى أخيه بنظرة تؤذيه " (٥)

ويجمع بعضهم علاقات حسن الخلق فيقول :

" علامات حسن الخلق هوان يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح

صدوق اللسان ، قليل الكلام ، كثير العمل ، قليل الزلل ، قليل الفضول ، برّاً و صولاً ، وتوراً

جسوراً ، شكوراً ، رضىاً ، حلماً ، رفيقاً ، عفيفاً ، شقيقاً ، ل لعاناً ولا سباباً ، ولا نماماً

ولا مغتاباً ، ولا عجولاً ، ولا حقوداً ، ولا نجيباً ، ولا حسوناً بشاشاً هشاشاً ، يحب فى الله

ويبغض فى الله ، ويرضى فى الله ، ويبغض فى الله " فهذا هو حسن الخلق .

وقد وصف الله نبيه - صلى الله عليه وسلم- فى القرآن العظيم بقوله . سبحانه

وتعالى- ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم: ٤] (٦).

ولقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - الغاية من بعثته ، والهدف من رسالته

بقوله - صلى الله عليه وسلم - : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

١ - متفق عليه من حديث ابى شريح الخزاعى ، ومن حديث ابى هريرة .

٢- متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قلته .

٣- متفق عليه ايضا من حديثهما ، وهو بعض الذى قلته .

٤- متفق عليه من حديث ابى شريح الخزاعى ، ومن حديث ابى هريرة .

٥- متفق عليه من حديثهما وهو بعض الحديث الذى قلته .

٦- متفق عليه ايضا من حديثهما ، وهو بعض الذى قلته .

فأركان الإسلام جميعاً بفرعها وسنتها مرجعها الأخلاق ، ولأخذ أمثلةً لذلك الصلاة مثلاً وهى ركن من أركان الإسلام ، غير مقبولة عند الله - عز وجل - ما لم يكن المصلى ، متسلحاً بالأخلاق الكريمة يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن رب

العزة " إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي ولم يستطل على خلقي ، ولم يئب مصراً على معصيتي ، وَقَطَعَ النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين والأرملة ، والمصاب وابن السبيل " وجاء أناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا له :

إن فلانة تصلى كثيراً ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال - صلى الله عليه وسلم - لا خير فيها ، هى من أهل النار ، ثم قالوا له : إن فلانة لا تصلى كثيراً ولكنها تتصدق على جيرانها بأثواب القطن فقال : صلى الله عليه وسلم - هى من أهل الجنة .

وجاء أعرابي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان له دين عند رسول الله - عليه السلام - فقال له : يا ابن عبد المطلب إنكم قوم مُطَل ، يعنى لا تسددون الديون فى مواعيدها فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأراد أن يضرب عنقه حيث أنه تناول على مقام النبوة ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا وهو أولى منك بهذا كان من واجبك يا عمر أن تأمر الأعرابي بحسن التقاضي وأن تأمرني بحسن الأداء .

ويرى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جاءه مال فوزعه ولم يَبِقْ لنفسه شيئاً ويحى أعرابي ويقول له : أعطني من هذا المال فهو ليس مالك ولا مال أبيك ، فأراد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يضرب عنقه ، لأنه تناول على مقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له - عليه السلام : " نفذ ما عندي من مال ، ولكن أذهب فابتع على ، يريد اذهب فاشترى ما تحتاجه على حسابي الخاص ، فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له يا رسول الله ما كلفك الله مالا تطيقه ، فقام رجل من الأنصار وقال لرسول الله . عليه السلام - يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا ، تبسم النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال بهذا أمرت .

ولذاك وصفه ربه- عز وجل - بحسن الخلق فقال له- عليه السلام-

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

يعنى وإنك يا محمد لعلى أدب رفيع جميل ، وخلق فاضل كريم ، فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات ، فبإله من شرف عظيم لم يدرك شأنه بشر، فرب العزة- سبحانه وتعالى - يصف محمد بهذا الوصف الجليل ، وقد كان من خلقه صلى الله عليه وسلم - العلم ، والحلم ، وشدة الحياء ، وكثرة العيان ، والسخاء والصبر ، والشكر ، والتواضع والزهد ، والرحمة ، والشفقة ، وحسن المعاشرة ، والأدب الى غير ذلك من الخلال العلية والخصال المرضية.

واخرج الشيخان عن أنس- رضي الله عنه - " خدمت رسول الله- صلى الله

عليه وسلم- عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لي لشيء فعلته لما فعلته ؟

ولا لشيء لم افعله إلا فعلته ؟

وكان - صلى الله عليه وسلم - أحسن الناس خلقاً ، وما مسست خنز ولا حريزاً

ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا شممت مسكاً ، ولا عطراً

كان أطيب من عرق رسول الله -صلى الله عليه وسلم-". (١)

وفى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها- لما سُئِلت عن خلقه . صلى الله عليه

وسلم- " كان خلقه القرآن " تعنى التأديب بأدابه ، ويقول الشاعر:

إذا الله أتتى بالذى هو أهله      عليك فما مقدار ما تمدح الورى

ويقول الإمام القشيري: " كما عرفه الله سبحانه ، أخبار من قبله من الأنبياء

عرفه أنه إجتمعت فيه متفرقات أخلاقهم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة

القلم: ٤].

ويقال " أنه عرض عليه مفاتيح الأرض فلم يقبلها ، ورقاه ليلة المعراج وأراه

جميع المملكة والجنة فلم يلتفت إليها ، فقال تعالى:

١- اخرجه البخارى ومسلم .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [سورة النجم: ١٧].

فما التفت يميناً ولا شمالاً، ولهذا قال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم: ٤].

ويقال " على خلق عظيم " ، لا بالبلاء تنحرف ، ولا بالعطاء تنصرف احتمل- صلوات الله عليه . فى الأذى شج رأسه وثرغره ، وكان يقول : " اللهم إغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وغداً كلٌ يقول نفسى نفسى .

وهو- صلوات الله عليه - يقول " أمتى أمتى " ويقال : علمه محاسن الأخلاق بقوله

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩].

وقد سأل - صلوات الله عليه - جبريل - عليه السلام- قائلاً : بماذا يأمرنى ربى ؟

قال : يأمرك بمحاسن الأخلاق ، يقول لك " صل من قطعك ، واعط من حرمك

واعفُ عمن ظلمك ، فتأدب بهذا فانثى عليه وقال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم: ٤].

ويقول " القرطبي " : يقول ابن عباس ومجاهد - رضى الله عنهم- على خلق أى

على دين عظيم من الأديان ، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه .

وقال على- رضى الله عنه - وعظيم " هو ادب القرآن وقيل : هو رفقه بأتمته

وإكرامه إياهم " وقال قتادة - رضى الله عنه - هو ما كان يأتمر به من أمر الله ، وينتهي

عنه مما نهى الله عنه ، وقيل أى إنك على طبع كريم وحقيقة الخلق فى اللغة هو ما يأخذ

به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خُلُقاً ، لأنه يصير كالخلقة فيه ، وأما ما طبع عليه من

الأدب فهو الخيم بكسر الخاء وهو السجية والطبيعة ، ولا واحد له من لفظه ، " وخيم "

هو اسم جبل .

والخيم هو الطبع الغريزى يقول الأعشى :

وإذا ذوالفضول ضمن على المو تى وعادات لخيمها الأخلاق

يعنى رجعت الأخلاق إلى طبائعها .

ومن خلقه- صلى الله عليه وسلم- ما تربيته لنا السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر- رضي الله عنها -فتقول : ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ما دعاه أحد من الصحابة ، ولا من أهل بيته إلا قال " لبيك " وسمى خلقه عظيماً لأنه لم تكن له همة - عليه السلام - سوى الله تعالى ، وقيل سمي خلقه عظيماً لإجتماع مكارم الأخلاق فيه - صلى الله عليه وسلم - يدل عليه قوله- عليه السلام.

" أدبني ربى تأديباً حسناً " إذ قال : " خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين "

فلما قيلت ذلك قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٍ ﴾ [سورة القلم : ٤]

ويقول- صلى الله عليه وسلم - " أتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تحها ، وخالق الناس بخلق حسن " .

وقال : أيضا " ما من شيء أثقل فى ميزن المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغضن الفاحش البذئء " .

وقال -صلى الله عليه وسلم - " حسن الخلق فى الجنة ، وسوء الخلق فى النار " وكانت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر- رضي الله عنها -تقول إذا نظرت الى المرأة لتحسن هندامها " اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى " يعنى كما حسنت شكلى وصورتى ، فحسن أخلاقى .

وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال : " هو بسط الوجه وبذل المعروف ، وكف الأذى " وعن جابر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال : " إن من أحبكم إلي ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً ، وقال- عليه السلام- وإن أبغضكم إلي ، وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون ، والمتفيهقون ، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال - صلى الله عليه وسلم- المتكبرون " .

ويحكى أن الصوفي الزاهد " إبراهيم بن أدهم " خرج يوماً إلى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال : أنت عبد ؟ .

قال : نعم ، فقال له : أين العمران فأشار إلى المقبرة ، قال الجندي : إنما أردت العمران ، فقال : هو المقبرة ، فغاضه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ، ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا : ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندي ما قال له إبراهيم بن أدهم فقالوا : هذا إبراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يده ورجليه وجعل يعتذر إليه .

ف قيل له بعد ذلك لما قلت له أنا عبد ؟ فقال إبراهيم بن أدهم : انه لم يسألني عبد من أنت ؟ بل قال لي : أنت عبد ؟ قلت نعم . لأنى عبد الله ، فأما ضرب رأسي سألت الله له الجنة ، قيل له كيف وقد ظلمك ؟

فقال إبراهيم بن أدهم : علمت أننى أتاب على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير ، ونصيبه منى الشر .

فهذه نفوس قد زلت بالرياضة ، فاعتدلت أخلاقها ، وسلمت ، ونقيت من الغش والغل ، والحقد يواظبها فأشربت الرضا بكل ما قدره الله تعالى ، وذلك حسن الخلق فإن من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه ، هذه هى أخلاق القرآن الكريم والتي لو تخلق بها المسلمون لسعدوا فى الدنيا والآخرة (١) .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى معنى هذه الآية " وإنك لعلى خلق عظيم " وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم -

- 
- 1 - احياء علم والدين ، للغزالي ج ٣ ، ص ٦٨ ، وما بعدها .  
 □ تفسير القرآن لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٠٢ ، وما بعدها .  
 □ تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٦٧٠٦ ، وما بعدها .  
 □ لطائف الاشارات للثشيرى ج ٣ ، ص ٦١٧ .  
 □ تفسير ابى السعود ج ٥ ، ص ٧٥٢ ، ط دار الفكر .  
 □ تفسير مفاتيح الغيب ، للفخر الرازى .  
 □ فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ج ٦ ، ص ٣٦٥٦ ، وما بعدها .  
 □ تفسير النسفى ج ٤ ، ص ٢٧٩ ط دار الفكر .  
 □ البحر المحيط ج ١٠ ، ص ٢٣٦ ، ط دار الفكر للطباعة والنشر سنة ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م .

ويثبت هذا الثناء العلوي فى صميم الوجود ، ويعجز كل قلم ، كما يعجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود - سبحانه - وهى شهادة من الله تعالى فى ميزن الله لعبد الله ، ويقول له فيها " وإنك لعلى خلق عظيم " ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ الى إدراك مداه أحد من العالمين .

ودلالة هذه الكلمة العظيمة ، على عظمة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - تبرز من نواح شتى .

**أولاً :** تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت فى كيانه وتُرَدَّد فى الملاء الأعلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

**ثانياً :** والجانب الآخر هو طاقة محمد . صلى الله عليه وسلم . لتلقيها ، وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة من هو؟ وما عظمتة؟ وما دلالة كلماته؟ وما مداها ؟ . إن إ طاقة محمد . صلى الله عليه وسلم . لتلقى هذه الكلمة من هذا المصدر وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل . فتلقيه لها فى طمأنينة ، وتماسك وتوازن ، كل ذلك يعطى دليلاً على عظمة شخصيته فوق كل دليل .

**ثالثاً :** حقيقة هذه النفس ، وهى نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حقيقة هذه الرسالة ، وعظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة<sup>(١)</sup> . وهذه اللقطة لها دلالتها على تمجيد العنصر الاخلاقى فى ميزن الله سبحانه وتعالى - وأصالة هذا العنصر فى الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر فى هذه العقيدة ، مثل الناظر فى سيرة رسولها - صلى الله عليه وسلم - يجد العنصر الأخلاقى بارزاً أصيلاً فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء ، ..... الدعوة الكبرى فى هذه العقيدة الى " الطهارة والنظافة ، والأمانة والصدق ، والعدل ، والرحمة ، والبر ، وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتها معاً

١ - فى ظلال القرآن للإمام الشهيد " سيد قطب " ج ٦ ، ص ٣٦٥٦ بتصرف .

للنية والضمير، والنهى عن الجور، والظلم، والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والإعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعة الفاحشة بأي صورة من الصور، والتشريعات فى هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقى فى الشعور، والسلوك وفى أعماق الضمير، وفى واقع المجتمع، وفى العلاقات الفردية، والجماعية، والدولية على السواء.

والرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فيلخص رسالته فى هذا الهدف النبيل، والغاية السامية، والغرض الشريف ميتغياً من وراء ذلك بناء مجتمع مسلم قوى متماسك خال من الأمراض المجتمعية كالغش والنفاق، والكذب، والخيانة، متصف بالأمانة، والصدق، والوفاء والإخلاص، والأخلاق التى أرشدنا إليها ربنا - عز وجل - فى كتابه الكريم.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢].

## " الإستقامة "

ومن الأخلاق الكريمة التى أرشدنا إليها القرآن الكريم قوله تعالى :-

﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ⑪ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُدْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ ⑬ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑮ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُوبِ ⑯ ﴾ [سورة القلم ١٠ : ١٦].

قيل أنه " الوليد بن المغيرة " وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة " المدثر

" وهى قوله تعالى :-

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ⑯ سَاءَ رُفْقَهُ، صَعُودًا ⑰ إِنَّهُ، فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ㉔ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ㉕ سَأُضْلِيهِ سَقَرَ ㉖ ﴾ [سورة المدثر ١١ : ٢٦].

ورويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنزار

أصحابه والوقوف فى وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله ، كما قيل أن آيات سورة القلم نزلت فى " الأحنس بن شريق " وكلاهما كانوا ممن خاصموا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولجوا فى حربته ، والتأليب عليه أمدأ طويلا .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة ، والتهديدات القاصمة فى السورة

الأخرى وفى سواها شاهد على شدة دوره سواء كان " الوليد أو الأحنس " والأول أصح وأرجح فى حرب الرسول والدعوة ، كما هى شاهد على سوء طويته وفساد نفسه ، وخلوها من الخير ، والقرآن الكريم يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميمة فهو " حلاف " ، ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ، ولا يثقون به فيحلف ، ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستحل ثقة الناس ، وهو أيضاً " مهين " يعنى لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله ، وآية مهانته حاجته الى الحلف ، وعدم ثقته بنفسه ، وعدم ثقة

الناس به ، ولو كان ذا مال وبينين ونا جاه ، فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطاناً طاغية جباراً ، والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا ، وهو " همام " يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة فى حضورهم وفى غيبتهم . وهذا الخلق يكرهه الإسلام ، حيث أنه يخالف المرءة كما هو مخالف لأدب النفس ، ويخالف الأدب فى معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغراً أم كبيراً وقد تكرر ذم هذا الخلق فى القرآن فى غير موضع ، فقال سبحانه :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة : ١].

وقال سبحانه : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ

وَلَا يُسَاءَلُ مِن سَأَلِ عَسَىٰ أَن يَكُنَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تُلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللَّيْلِ بِئْسَ الْإِسْمُ  
الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ [سورة الحجرات : ١١].

وهو " مشاء بنميم " يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ويذهب بموداتهم ، وهو خلق ذميم ، كما أنه خلق مهين لا يتصف به ، ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه ، أو يرجو لنفسه إحترماً عند الآخرين حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام وناقض الكلام ، المشاء بالسوء بين الأبناء حتى الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه فى قرارة أنفسهم ، ولا يؤذونه ، ولقد كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ينهى أن ينقل إليه أحداً ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه ، وكان يقول - صلى الله عليه وسلم - " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فأنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " . وثبت فى الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس - رضى الله عنهم أجمعين - قال : مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة " ورى الإمام أحمد بإسناده عن حذيفة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه

وسلم- يقول :- " لا يدخل الجنة قتات " يعنى تمام ورؤاه الجماعة إلا ابن ماجة ، وروى الإمام أحمد كذلك بإسناده عن يزيد بن السكن أن النبي - صلى الله عليه وسلم .

قال " ألا أخبركم بخياركم ؟

قالوا : بلى يا رسول الله ، قال الذين إذا رؤوا ذكر الله - عز وجل - ثم قال

ألا أخبركم بشراكم ؟

المشاعون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء بالعيب " ولم يكن للإسلام بد أن يشدد فى النهى عن هذا الخلق الذميم ، الوضع الذى يُفسد القلب كما يفسد الصحب ويتدننى بالقاتل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، كما أنه يجنى على الأبرياء فى معظم الأحيان ، وهو أيضاً " مناع للخير " ، يمنع الخير عن نفسه وعن غيره ، ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير ، وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته كلما أنس منهم ميلاً الى النبي - صلى الله عليه وسلم - إن تبع دين محمد منكم أحد لا انفعه بشيء أبداً .

فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام ومن هنا يسجل القرآن الكريم عليه هذه الصفة المذمومة " مناعاً للخير " وهو معتمد ، متجاوز للحق والعدل ، ثم هو معتد على النبي - صلى الله عليه وسلم . وعلى المسلمين ، وعلى أهله وعشيرته الذين يصددهم عن الهدى وإعتناق الإسلام ، وهو " أثيم " يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت " أثيم " دون تحديد لنوع الإثم الذى يرتكبه ، وهو بعد هذا كله " عتل " وهى لفظة تعبر عن مجموعة من الصفات ، ومجموعة من السمات لا تبلغها مجموعة الفاظ وصفات ، حيث أن العتل هو الغليظ الجافي ، والأكول الشررب ، وأنه الشرر المنوع ، وأنه أَلْفَظ فى طبعه ، اللئيم فى نفسه ، السئى فى معاملته .

وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - " العتل " كل رغب الجوف ، وثيق الخلق

أكول شررب ، جموع للمال ، منوع له . ولكن تبقى كلمة " عتل " بذاتها أول على كل هذا

وأبلغ تصوير للشخصية الكريهة من جميع الوجوه ، وهو أيضاً " زنيم " وهذه خاتمة الصفات الذميمة التى جمعت فى عدو من أعداء الإسلام ومعنى الزنيم ، هو ابن الزنا ، يقول " حسان بن ثابت - " رضى الله عنه - زنيم ليس يعرف من أبوه خبيث العرض ذو حسب لنيم ، ثم بجى التهديد من الله - عز وجل - بقوله تعالى :-

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [سورة القلم : ١٦].

ومن معانيه طرف أنف الخنزير البرى ، ولعله هو المقصود هنا ، كنايةً عن أنفه والأنف فى لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال " أنف أشم " للعزيز و " أنف فى الرغام " للذليل ، يعنى فى التراب .

ويقال : ورم أنفه ، وَحَمَى أَنْفَهُ إِذَا غَضِبَ مَعْتَزاً ، ومنه الأنفة ، والتهديد بوسم على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير : الأول : الوسم كما يوسم العبد . والثانى : هو جعل أنفه خرطوماً مثل خرطوم الخنزير ، ولا ريب فى أن وَقَعَ هذه الآيات كان قاسياً وقاصماً ، لنفسية الوليد ويقول " المراعى " : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق وبالباطل والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على الله ضعفه ومهاتته أمام الحق ، وفيه دليل على عدم إستشعاره الخوف من الله فالكذب أساس كل شر ، ومصدر كل معصية وكفى مزجراً لمن إعتاد الحلف أن جعله الله . سبحانه وتعالى . فاتحة المثالب ، وأس المعاييب ، وهو محتقر الرأي والتفكير ، وعياب وطعان يذكر الناس بالمكره ، وينال من أعراضهم وذلك بذكر معاييبهم ومثالبهم ، ونقال للحديث من قوم إلى قوم على وجه الإفساد بينهم وأصل النميمة الحركة الخفيفة ، ومنه " أسكت الله نأتمه " يعنى ما ينم عليه من حركته ، وبخيل بماله ممسك له ، لا وجود به لدى البأساء والضراء ، لا يدفع عون المعوزين ولا يساعد البأساء المحتاجين ولا ينجد الأمة إذا ضربها الأمر ، وضاق بها السبل ، مثل دفع عدو هاجم البلاد أو دفع كارثة نزلت بها ، متجاوزاً لما حده الله لأوامر وتوايه ، فهو

يخوض فى الباطل خوضه فى الحق ولا يتحرج عن إرتكاب المآثم والمظالم ، كثيرا الأثام والذنوب ، وفوق ذلك فظ غليظ جاف يعامل الناس بالغلظة والفظاظة .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : وهو الرجل الذى يمر على القوم فيقولون رجل سوء ، وإذ تئلى عليه آيات الله قال هذا من كلام البشر ، ومن قصص الأولين ، من كانت هذه صفاته سنجعل له سمة وعلامة على أنفه ، والمراد أننا سنفضح أمره ، وهذا منتهى الإذلال والمهانة يقول " جرير " :

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت انف الأخطل  
ففى الدنيا سنذله غاية الإذلال ، ونجعله مشهوراً بالشر ، ويوم القيامة نسمة على أنفه ليعرف بذلك كُفْرُهُ وإنحطاط قدره ، ويقول الشاعر أيضا :

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم  
وفى صحيح مسلم عن " حارثة بن وهب " سمع النبي - صلى الله عليه وسلم -  
" قال : ألا أخبركم بأهل الجنة قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف مستضعف لواقسم على الله لأبر ، ألا أخبركم بأهل النار قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر " وفى رواية عنه " كل جواظ زنيم متكبر " والجواظ هو الجموع المنوع ، وقيل كثير اللحم المختال فى مشيته .

وقال - صلى الله عليه وسلم - " لا تزُل أمتى بخير ما لم يغش فيهم ولد الزنا فإذا فشا فيهم ولد الزنى أوشك أن يعمهم الله بعقاب .

ويقول " عكرمة " - رضى الله عنه - " إذا كثروا ولد الزنا قحط المطر "

ومن سمات هؤلاء أيضاً وصفهم فى القرآن الكريم :-

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٦]

وقال تعالى : ﴿ ... وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [سورة طه : ١٠٢] .

ويقول الأعشى فى هذا المعنى :

دعها وما يغنيك وأعمد لغيرها يشغرك واغلب انف من أنت واسم  
ويقول " النضر بن شميل " المعنى سَحَدُهُ على شرب الخمر ، والخرطوم هى الخمر  
والجمع خرطوم ، قال الشاعر :

تظل يومك فى لهو وفى طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم  
وقال آخر :

أبا حاضر من يذق يعرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكراً  
قال بن عباس - رضى الله عنهما - " لا نعلم أحد وصفه الله بهذه العيوب غير هذا  
فالحق به عاراً لا يفارقه أبداً ، وإنما ذم بذلك لان النطفة إذا خبثت خبت الولد ويرى أن  
الآية لما نزلت جاء الوليد الى أمه فقال لها :

" إن محمد وصفنى بتسع صفات ، كلها ظاهرة فى أعرفها غير التاسع منها يريد  
أنه " زنيم " . فان لم تصدقنى ضربت عنقك بالسيف فقالت له : " إن أباك كان عنيماً " -  
أى لا يستطيع معاشرته النساء فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسى ، فأنت ابن ذلك  
الراعى ، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت هذه الآية .  
وهى قوله تعالى :

﴿عَتِلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [سورة القلم : ١٣]

يقول الإمام الفخر :

" الوجه أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه  
ولذلك جعلوه مكان العزوالحمية ، وشتقوا منه الأنفة .

هذه آيات أنزلها الله تعالى فى الوليد بيِّد أنها عامة تخص كل مسلم ومسلمة  
فواجب علينا نحن المسلمين أن ننأى بأنفسنا عن هذه الخلال الذميمة التى سجلها الله  
فى القرآن الكريم .

حتى يكون المجتمع الاسلامى ، مجتمعاً نظيفاً سليماً ، معافى من هذه الخصال المذمومة لدى الناس فى الدنيا ، ولدى الله – سبحانه وتعالى – فى الآخرة ، وحتى نكون من الذين ابيضت وجوههم ، وفى رحمة الله خالدون(١) .

- 
- 1 - تفسير النسفى ، المجلد الثانى . طدار الفكر ص ٢٨٠ ، وما بعدها .
- البحر المحيط ، ج ١٠ ، ص ٢٣٨ ، وما بعدها .
  - تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٦٧١٠ ، وما بعدها .
  - تفسير ابى السعود ج ٥ ، ص ٧٥٣ ، وما بعدها .
  - تفسير المزاغى ، ج ١٠ ، ص ٣١ ، وما بعدها .
  - فى ظلال القرآن الكريم ، ج ٦ ، ص ٣٦٦٢ ، وما بعدها .
  - تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، وما بعدها .
  - التفسير الكبير للرازى ، ج ٣ ، ص ٨٣ .
  - التسهيل لعلوم التنزيل ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ .
  - صحيح مسلم .
  - صحيح البخارى .
  - تفسير الجلالين وحاشية الصاوى عليه ج ٤ ، ص ٢٣٣ .
  - تفسير الطبرى ج ٢٩ ، ص ١٨ .

## " الصبر "

ومن الآيات القرآنية الكريمة والتي تحض على التحلى بالأخلاق الفاضلة والتمسك بالقيم والمبادئ القويمة ، كما أنها تحث على السلوك الحضارى الذى يسعد به المسلم فى الحياة الدنيا ، وتجعله يفوز برضوان الله تعالى فى الدار الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . هذه الآية هى قول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [سورة المزمل : ١٠].

يوجه الله - سبحانه وتعالى - نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الأخلاق الحميدة ، كما يوجه أمته فخطب النبى - صلى الله عليه وسلم - خطاب لأمته فى أمره بالصبر على أذى قومه له ، وعلى ما يقولون فيه ، وفى ربه حيث أنهم سفهاء ، وضالون ومكذبون ، فأصبر على أذاهم وعلى ما يقولونه فيك وفى الله - عز وجل - واهجرهم هجراً جميلاً ، وذلك بأن تداريهم ، وتجانبهم ، مع الإغضاء عن زلاتهم ، وعدم معاتبتهم .

والمراد بالهجر الجميل هو المجانبة بالقلب والهوى ، والمخالفة فى الأفعال مع الإغضاء والمدارة ، وترك المكافأة . ومثلها قول الحق - عز وجل - : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الأنعام : ٦٨]

ويقول صاحب " مدارك السالكين " : الهجر الجميل هو الذى لا أذى فيه ، والصبر الجميل لا شكاية فيه والصفح الجميل هو الذى لا عتاب فيه .

ويقول " ابن كثير " :- رحمة الله عليه - أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه وأن يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذى لا عتاب منه .

ويقول الإمام " القرطبي " واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً . يعنى أصبر على ما يقولونه من الأذى ، والسب والإستهزاء ، ولا تجزع من قواهم ولا تمتنع من دعائهم ، ولا تتعرض لهم ، ولا تشتغل بمكافأتهم فإن فى ذلك ترك الدعاء الى الله .

وكان هذا قبل الأمر بقتالهم فأمره الله تعالى بالصبر على أذاهم ، ثم بعد ذلك أمره بقتالهم ، فكأن الأمر بالقتال جاء بعد صبر وإحتمال للأذى والمكاره وتجنب أذاهم فلما تآدوا وزاد عتاهم وجحودهم وإصرارهم على الكفر والاعتداء أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بقتالهم وقتلهم حيث أنهم معتدون وفى الشر والكفر والعناد يتمادون .

ويقول " أبوالدرداء " - رضى الله عنه - : " انا لنكشرفى وجوه أقوام ، ونضحك اليهم ، وان قلوبنا لتقليهم أو لتلعنهم " (١) .

وقيل أن المراد " اصبر على ما يقوله عنك إنه ساحر ، وكاهن ، وشاعر ومجنون فإن الله ناصرك عليهم ومخزيهم فى الدنيا والآخرة ، وذلك جزاء تكذيبهم لك ومقولهم عليك واذاهم لك ولأصحابك .

وتركهم ولا تتعرض لهم بسب ، ولا شتيمة ولا أذى . والحكمة من وراء ذلك أن المؤمنين كانوا قلة بمكة ومستضعفين فلذلك أمرهم بالصبر ، والمجاهدة الليلية ، حتى يُعدّوا أنفسهم بهذه التربية الرّحية على مناجزة الأعداء وحتى يكره عدوهم ويكون فى وسعهم الوقوف فى وجه الطغيان ، ومحاربة المعتدين المكذبين بيوم الدين .

أما قبل الوصول إلى مرحلة الإستعداد الرّحى والكفاءة القتالية فينبغى عليهم الصبر والمصابرة ، والإقتصاد على الدعوة باللسان فحسب .

وظل الأمر كذلك حتى كثر عدد المسلمين وتهيأوا للقتال رّحياً ومعنوياً وعدداً أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يجهر بالدعوة : فقال له - عليه الصلاة والسلام - " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " .

فامتثل النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر ربه وصعد على " جبل الصفا " وناداهم يا بنى فلان ، يا بنى فلان ، حتى اجتمعوا اليه فقال لهم قولته الشهيرة : " أرايتم لو ان خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

قالوا له : نعم ، ما جربنا عليك كذبا قط .

فقال لهم – عليه الصلاة والسلام – : إنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .  
فأنبرى له " أبو لهب " وقال له : " تبا لك . ألهذا جمعتنا ؟ !! فتكفل الله بالسر وعليه قوله  
سبحانه :-

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣  
وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد : ١ : ٥] .

يقول المفسرون : " الهجر الجميل هو الذى لا عتاب معه " هذه هى الأخلاق  
القرآنية العظيمة التى يجب أن يتحلى بها المسلم حتى تسود الفضيلة وتختفى الرذيلة  
ويعم الحب والاحياء ، والمودة ، ولا يكون هناك عتاب حتى لا تتجدد البغضاء ، وتتولد  
الشحناء ، وتتنافر القلوب . ويكون الأمر كما قال الشاعر :

إن النفوس إذا تتأفر ودها      مثل الزجاج كسرها لا يجبر

والمراد نزع البغضاء ، والنأى عن الشحناء ، حتى يعم الحب فى المجتمع  
الإسلامى وبين المسلمين ، فلوان المسلمين اهدتوا بهدى القرآن الكريم والأخلاق القرآنية  
لسعدوا فى دنياهم وأخراهم . (١)

١- تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٤٣٧ .

- تفسير المزاغى ج ١٠ ، ص ١١٥ ، وما بعدها .
- تفسير القرطبي ج ١٠ ، ص ٦٨٣٧ .
- مختصر ابة السعود ج ٥ ، ص ٧٨٥ ، طدار الفكر .
- مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٥٦٤ .
- حاشية الصاوى على الجلالين ج ٤ ، ص ٢٦٠ .
- التسهيل لعلوم التنزيل ج ٤ ، ص ١٥٨ .
- البحر المحيط ج ٨ ، ص ٣٦٤ .

## " توجيهات إلهية "

ومن الآيات التى تتحدث عن الأخلاق فى القرآن الكريم قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ ۝١ قُرْآنِذِرٌ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَذِبٌ ۝٣ وَتِيَابِكَ فَطَهْرٌ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمَنََّنَّسَكَ كَثِيرٌ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [سورة المدثر: ١-٧].

وروى " جابر بن عبد الله " عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " كنت على جبل حراء ، فنوديت يا محمد إنك رسول الله ، فنظرت عن يميني ويساري ، فلم أر شيئاً ، فنظرت فوقى ، فرأيت الملك قاعداً على عرش بين السماء والأرض ، فخفت ورجعت إلى خديجة ، فقلت : دثرني دثرني ، وصبوا عليّ ماءً بارداً ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله : { يَتَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ } [سورة المدثر: ١] »

الى قوله تعالى " وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " [سورة المدثر: ٥].

وقد أمر الله رسوله بالإنذار ، وتطهير نفسه من ذنبي الأخلاق والمآثم والصبر على أذى المشركين ، فإنهم سيلقون جزءاً هم يوم ينفخ فى الصور ، وهو يوم شديد الأهوال على الكافرين ، ليس بالهين عليهم .

وفى تفسير " أبى السعود " قيل : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع من قريش ما كرهه فاعتَمَ فتغطى بثوبه متفكراً كما يفعل المغموم فأمر أن لا يدع إنذارهم وإن أسمعوه ، وأذوه .

قيل : كان نائماً متدثراً .

وقيل : المراد المتدثر بلباس النبوة والمعارف الإلهية . الشعار هو الثوب الذى يلى الجسد مباشرةً ، والدثار يكون فوقه .

ويقول النبى - صلى الله عليه وسلم - :

" يا معشر الانصار أنتم الشعار، والناس الدثار "

وهذا دليل على نصره الأنصار له ، وقربهم الى قلبه ، ولا غرؤفهم الذين نصره ، وأصحابه ، واستقبلوهم بالمدينة خيرا استقبال .

و يقول عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما:

إن " الوايد بن المغيرة " صنع لقريش طعاماً، فلما أكلوا.

قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ .

فقال بعضهم: ساحر.

وقال بعضهم: ليس بساحر.

وقال بعضهم: كاهن.

وقال بعضهم: ليس بكاهن.

وقال بعضهم: شاعر.

وقال بعضهم: ليس بشاعر.

وقال بعضهم: بل سحريؤثر.

فأجمع رأيهم : على أنه سحريؤثر.

فبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فحزنَ وَقَنَعَ رأسه وتَدَثَّرَ، فأَنْزَلَ

اللَّهِ ﴿بِأَنَّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ١ ﴿قُرْآنِذِرٌ﴾ ٢ ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ﴾ ٣ ﴿وَيَايَاكَ فَطَهِّرٌ﴾ ٤ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ٥ ﴿وَلَا تَمُنُّنْ تَسْتَكْبِرُ﴾

٦ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ٧ ﴿[سورة المدثر: ١: ٧].

فقلوه { قُرْآنِذِرٌ } أي: شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس.

وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة مع تعظيم ربك .

وعن عكرمة عن ابن العباس - رضى الله عنهم - انه أتاه رجل فسأله عن

هذه الآية " وَيَايَاكَ فَطَهِّرٌ " فقال : " لا تلبسها على معصية ولا على غدره " .

ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر لبستُ ولا من غَدْرَةٍ أَتَقَنَّعُ

ومنه ما روى ان النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

" يُحْتَشَرُ المرءُ فى ثوبيه اللَّذِينَ مات عليهما " يعنى عمله الصالح والطالح .

منهم من قال : ونفسك فطهر، ومن ذلك قول " عنتره بن شداد " :

فشككت بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمجرم

و قال أمرؤ القيس :

ثياب بني عوف طهارى نقيه وأوجههم بيض المسافر غران

يعنى " انفس بنى عوف " ، وبما جاء عن العرب فى الكناية عن الجسم

بالثياب قول " ليلى " :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى لها شهباً إلا النعام المنفرا

أى ركبوها فرموها بأنفسهم .

وقيل هو الطهارة من كل ما يدنس المسلم من ثياب وغيرها فالآية دعوة

إلى الأخلاق الكريمة ، والسلوك الحسن ، والسيرة العطرة والنأى عن كل ما يشوب

سلوك المسلم بشائبة ، فالطهارة عامة فى كل شيء ، فى الثياب والسلوك والسيرة ،

وفعل الطاعات والنأى عن المعاصي . فالمراد هنا إصلاح العمل قولاً وفعلاً ،

وسلوكاً ، وظاهراً وباطناً يؤيد صدق ما ذهبنا إليه إن العرب كانت تُسمى الرجل

إذا نكت ولم يفِ بعهد الله " إنه لدنس الثياب " .

وإذا وفى وأصلح " إنه لمطهر الثياب " .



﴿...وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...﴾ [سورة إبراهيم: ٣٤].

وأجعل صبرك على أذاهم لك فى سبيل الله وخالصا لوجهه حتى تفوز برضوان الله - سبحانه وتعالى - وفى خطاب الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : تल्प من الكرىم وهو الله الى الحبيب وهو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله - صلى الله عليه وسلم - " لعلى " - رضى الله عنه - إذ نام فى المسجد: (قم أبا تراب) وكان خرج مغاضباً لفاطمة رضى الله عنها فسقط رداؤه وأصابه التراب.

ومثله قوله - عليه الصلاة والسلام - لحذيفة ليلة الخندق: (قُمْ يَا نَوْمَان) .

يرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما نزلت هذه الآية وهى قوله : " وربك فكبر " قام النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال " الله اكبر " فقامت السيدة خديجة وقالت :

" الله اكبر " وعلمت أنه الوحى من الله تعالى .

والعرب تسمى " الأهل " ثوبا ، ولباساً وان رأ قال تعالى :-

﴿... هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ...﴾ [سورة البقرة: ١٨٧].

وقيل المراد وخلقك فحسن ، وأمأنا أنفا أن المراد بهذه الآية الطهارة

فى كل شىء وأن كل شىء .

والعرب تعنى بطهارة الثياب : سلامتهم من الذنآات ، ويعنى بغرة

وجوهم تنزيههم عن المحرمات ، يقول " سفيان بن عيئة " لا تلبس بثابك على "

كذب ، أو جور غدر ، أو أثم . ومنه قول النابغة :

رقاق النعال طيب جزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب



وقال تعالى:

﴿...فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا...﴾ [سورة الأعراف: ١٦٢].

فسميت الاوثان رجزاً لأنها تؤدى إلى العذاب .

﴿وَلَا تَمَنَّوْا تَسْتَكْتَرُ﴾ [سورة المدثر: ٦].

يعنى : لا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة . وقيل: لا تعطى لتأخذ أكثر مما أعطيت من المال .

وفى تفسير " المراعى " " ولا تمنن تستكثر " ولا تمنن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي مستكثراً عليهم ، وقد يكون المعنى لا تضعف من قولهم " حبل منين ، أى ضعيف ، ومنه السير ، يعنى أضعفه ، فالمراد لا تضعف أن تستكثر من الطاعات التى أمرت بها قبل هذه الآية ، وقد يكون المراد كما قال " ابن كيسان " :

" لا تتنكر عملاً فتره من نفسك ، إنما عملك منة من الله عليك إذ جعل لك سبيلاً إلى عبادته . " ولربك فاصبر " يعنى على طاعته وعبادته . "

ويقول " مقاتل ومجاهد " - رضى الله عنهما - " اصبر على الاذى والتكذيب ولا تجزع من أذى من خالفك " .

هذه توجيهات القرآن الكريم ، وإرشاداته العظيمة التى توجه المسلمين إلى التحلى بالأخلاق الفاضلة ، والخلال الكريمة ، والصفات الحميدة ، والسلوك السوى المستقيم ، وبذلك يسعد المؤمن فى الدنيا ، ويفوز برضوان الله تعالى فى الآخرة .

فلوان المسلمين إستمسكوا بهذه التوجيهات لقادوا و سادوا ، و ملكوا زمام الدنيا خاصة فى هذا العصر الذى يموج بالفتن ، و التيارات الوافدة ، و الاعاصير و الريح الهوجاء التى تهب على العالم الاسلامى من كل حدب و صوب . (١)

---

1- روح المعانى للالوسى ، ج ٢٩ ، ص ١١٦ .

## "العدل والإنصاف"

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة ، الحث على العدل الاجتماعى ، والذى يتمثل فى المكيال والميزن ، وعدم الغش فيهما حيث أن ذلك التطفيف فى المكيال والميزن يترتب عليه إضاعة الحقوق ، وفساد المجتمع أخلاقياً ، وهولون من ألوان الفجور .

ولقد روى "النسائى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : " لما قدمَ النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة كانوا من أحببت الناس كيلاً فأَنْزَلَ اللهُ تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [سورة المطففين : ١].

فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وكانوا من أوفى الناس كيلاً إلى يومنا هذا .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : هى أول سورة نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساعة ما نزل المدينة ، وكان هذا فيهم . كانوا إذا إشتروا استوفوا بكيل المدينة ، وإذا باعوا بخسوا المكيال والميزن فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومنا هذا وقيل : أنها نزلت فى رجل يعرف " بأبى جينه واسمه عمرى " كان له صاعان يأخذ بإحدهما ويعطى بالآخر .

" ويل للمطففين " توعدهم الله بالهلاك والدمار والغذاب لهؤلاء الذين ينقصون المكيال والميزن مبيناً أوصافهم القبيحة وهى إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وأفيا كاملاً لأنفسهم ، وإذا كالوا للناس ، أو وزنوا لهم تراهم ينقصون الكيل والوزن وهو وعيد لكل من طفف الكيل والوزن ، وقد أهلك الله قوم سيدنا " شعيب " - عليه السلام - لبخسهم المكيال والميزن ، وفى الحديث :- " ولَا تطفوا الكيل أَلَا "



وهم الذين توعدهم النبى - صلى الله عليه وسلم - وتهددهم بقوله : " خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلب الله عليهم عدوهم، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فتشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون، وما طففوا الكيل إلا منعوا الذبأت، وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر " .

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - عمل المطففين الذين استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾

[سورة المطففين ٢: ٣].

يعنى اذا كان لهم عند الناس حق فى شىء من الكيل أو الوزن اخذوا وافيوا واذا كان لأحد عنهم شىء وأرادوا رده ناقصاً، وغير وافٍ، وكما يكون التطفيف فى الكيل والميزن، يكون فى اشياء أخرى فمن استأجر عاملاً، ووقف يراقبه ولم يُؤدِّ عمله على الوجه الذى يجب ان يكون دخل فى ذلك الوعيد، فما ظنك بأولئك الذين يأكلون اموال الناس بلا كيل أو وزن، بل يأخذون منهم ويسلبونهم ما بأيديهم اعتماداً على المنصب أو القوة، أو الجاه، أو السلطان، إن هؤلاء يحسبون فى عداد المطففين، الجاحدين، المنكرين ليوم الدين والجزء العادل من الله - سبحانه وتعالى - ثم ترى هذا التهويل فى قول الحق - سبحانه وتعالى - :

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة المطففين ٤: ٥].

فإن تطفيف الكيل والميزن، واختلاس أموال الناس بهذه الوسائل لا يصدر إلا عن شخص لا يظن انه سيبعث انه ليجرأ على فعل ما قدم، ويحاسب على

عمله ، انه ليجزئ على فعل هذه القبائح من كان يظن بوجود يوماً يحاسب الله فيه عباده على اعمالهم ، فما بالك بمن يستيقن ذلك .

### ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المطففين: ٦]

هذا اليوم هو اليوم يعنى فى النار ولكنه على المؤمنين قدر صلاتهم الفريضة .  
 هذه الأخلاق فى القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو هُدى للمتقين الذين يراقبون الله - عزوجل - فى كل اعمالهم ، وخاصة الكيل والميزن ونحن نرى ان هذا مثال لتنبه المؤمن ، ويعدل فى كل شيء وليس فى الكيل والميزن فحسب ، بل يعدل فى نفسه ، وولده ، وأهله ، ومع الناس وفى القضاء حيث يترتب على التظريف اضاءة حقوق الناس ، ونشر الفساد فى الأرض ، فعلى كل مسلم أن يكون عادلاً وألاً يكون مُطَفِّفاً فى أى شيء ، وفى أى أمر من أمور الحياة الدنيا ، فإن وعد الله لآت ويعد هذا من قبيل الظلم للنفس والأهل ، والناس وفى ذلك عذاب شديد للذين يفعلون ذلك ولا يخشون ربهم ولا يعملون ليوم يقومون فيه لرب العالمين (١) .

- 
- 1- تفسير المزاغى ، ج ١٠ ، ص ٧١ ، وما بعدها .  
 □ تفسير ابى السعود ، ج ٥ ، ص ٨٤٢ ، وما بعدها .  
 □ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٨٣ .  
 □ البحر المحيط ، ج ١٠ ، ص ٤٢٥ ، وما بعدها .  
 □ صفوة التفاسير ، ج ٣ ، ص ٥٣٢ ، وما بعدها .  
 □ تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٧٠٤١ ، وما بعدها .  
 □ روح المعانى للالوسى ، ج ٣ ، ص ٧١ .  
 □ مختصر تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦١٤ .  
 □ التنكرة فى احوال الموتى وامور الآخرة ، للقرطبي .

الذى يقف فيه الناس للعرض والحساب ، ويطول بهم الموقف إعظاماً لجلاله تعالى ولا يُخفى ما فى الوصف " برب العالمين " من الدلالة على عظم الذنب وتفاقم الأثم حيث ان الميزنُ هو قانون العدل الذى قامت به السماوات والأرض .  
وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه كان يمر بالبائع فيقول اتق الله تعالى وأوفى الكيل ، فإن المطففين يوقفون ليوم القيامة لعظمة الرحمن حتى ان العرق ليلجمهم .

**و عن عكرمة - رضى الله عنه - أنه قال : " أشهد أن كل كِيالٍ ووَزَنٍ فى النار وكأنه أراد المبالغة ، وبيان أن الغالب فيهم هو التطفيف .**

ويقول " مالك بن دينار " دخلت على جَارِ لى قد نزل به الموت ، فجعل يقول : " جبلين من نار " ، فقلت : " ما تقول ؟ انجز ؟

قال : " يا ابا يحيى كان لى مكيالان أُكَيْلُ بأحدهما ، واكتال بالآخر فقامت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر حتى كسرتهما ، فقال : " يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازاد عظاما فمات من وجعه .

يقول " الاصمعى " : " سمعت إعرابيه تقول : " لا تلتمس المرءة ممن مرءته فى رؤوس المكاييل لأنه السنه الموازين ، وروى ذلك عن عليّ - رضى الله عنه - ومير عليّ - رضى الله عنه - على رجل وهو يزن الزعفران وقد رجح فأكفأ الميزنُ ثم قال : أقم الوزن بالقسط ، ثم ارجع بعد ذلك ما شئت كأنه أمره بالتسوية أولاً ليعتادها ، ويفصل الواجب من النقل .

والظن فى قوله تعالى : ﴿الْأَيْظُنُّ أَوْلَتِكَ أَيَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [سورة المطففين : ٤].

بمعنى اليقين ، وقيل بمعنى التردد .

وعن " عبد الله بن مروان " أن إعرابيا قال له : " سمعت ما قاله الله تعالى فى المطففين ، أراد بذلك أن المطففين قد توجب عليهم هذا الوعيد العظيم الذى سمعت به فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أقوال المسلمين بلا كيل أو وزن .  
وقد قرأ ابن عمر - رضى الله عنهما - ويل للمطففين ، حتى بلغ قوله تعالى :

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المطففين : ٦].

فبكى حتى سقط ، وانتهى من قراءة ما بعده ، ثم قال : " سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : " يوم يقوم الناس لرب العالمين فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ، ومنهم من يبلغ العرق ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العرق عقبه ، ومنهم من يبلغ صدره ، ومنهم من يبلغ أذنيه ، حتى أن أحدهم ليغيب فى رشحه كما يغيب الضفدع .



## مصادر الكتاب

القرآن الكريم .

السنة النبوية المطهرة .

- ✓ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى .  
نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .
- ✓ سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر دار إحياء التراث العربى  
بالقاهرة .
- ✓ سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الامام السندى  
نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .
- ✓ السنن الكبرى للإمام البهيقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب  
العلمية – بيروت . لبنان .
- ✓ البحر المحيط .
- ✓ البحر المديد ، لابن عجيبة .
- ✓ التحرير والتنوير ، لعاشور .
- ✓ التسهيل لعلوم التنزيل ، لابن جزرى .
- ✓ التفسير الكبير، للفخر الرازى .
- ✓ الزيادة فى كتاب " النهاية " لابن الاثير .
- ✓ المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عترىس ، ط : مكتبة الآداب  
بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
- ✓ بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .
- ✓ تفسير ابن كثير .
- ✓ تفسير أبوالسعود .

- ✓ تفسير الخازن .
- ✓ تفسير القرطبي .
- ✓ تفسير النسفى .
- ✓ تفسير القرطبي ، ط . دار الريان للترث . القاهرة.
- ✓ تفسير المراعى .
- ✓ تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
- ✓ حاشية الصاوى على الجلالين .
- ✓ حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .
- ✓ خلق المسلم الشيخ محمد الغزلى، ط . نهضة مصر.
- ✓ ربح المعانى للأوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
- ✓ فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشرىق .
- ✓ لطائف الاشارات للإمام القشبرى ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣ م .
- ✓ مختصر تفسير ابن كثير .
- ✓ مفاتيح الغيب .